بين آثار العالم العربي

تأليف
أحمد فخري
أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

سبتمبر سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)



دار ممفيـــس للطبـــاعة

٥٦ شارع منصور (باب اللوق) القاهرة

ت ٢٦٨١٨

مقدمة

فى أوائل عام ١٩٥٦ زارنى فى منطقة حفائرى فى دهشور جماعة من الأصدقاء ومعهم بعض الأجانب ، وما كان للحديث أن يدور فى مثل هذه الأماكن إلا حول التاريخ والآثار ، فأخذ بعضهم يقارن بين أهرام دهشور وغيرها من الأهرام وتطرق الحديث إلى الأقصر وأسوان ثم أبى أن يقف عند حدود مصر فأخذ بعضهم يذكر ما زاره من آثار فى بلاد أخرى .

ومضت شهور على ذلك ثم التقيت يوما ما فى منزل صديق لى بأحد أولئك الذين زارونى فى دهشور فلم يلبث حديثنا جميعاً حتى تحول إلى الآثار ، وعرفنى صديق فى هذا المساء بأنه المشرف على إذاعة صوت أمريكا وأنه يسره إذا قبلت إلقاء سلسلة من الأحاديث باللغة العربية عن الآثار والحضارة المصرية القديمة فأجبته بأنى لا أمانع مبدئياً واتفقنا على موعد آخر لإتمام الحديث .

وعند ما التقينا تفاهمنا على مشروع آخر جديد . فقد كان من رأيى ألا أقتصر على الآثار المصرية فقط بل أفضل أن أتحدث أيضاً عما رأيته من آثار فى بعض بلاد الشرق الأدنى فأخصص لها جزءاً من الثمانية عشر حديثاً التى قال بأنه يمكن تخصيصها لهذه السلسلة ، وذلك لأن المستمع العربى فى حاجة إلى هذا النوع من الثقافة فرد على بأنه إذا كان هذا هو رأيى فلماذا لا تشمل الأحاديث جميع الآثار الهامة فى البلاد العربية بدلا من الاقتصار على بعضها .

وتم تسجيل الأحاديث الثمانية عشر وأذيعت كلها أكثر من مرة فى برامج إذاعة صوت أمريكا تحت عنوان : « مفاخر الآثار فى البلاد العربية »

ووصلتني عشرات الرسائل من كثير من البلاد العربية المختلفة يستزيد مرسلوها من بعض المعلومات ويسألونني عن أسماء مؤلفات يقرؤونها عن بعض المواضيع التي أشرت إليها ، وكان أكثر مايطلبه من كتبوا إلي أو كتبوا إلى صوت أمريكا هو إرسال نسخة من بعض الأحاديث أو نسخ منها جميعاً ليحتفظوا بها .

وها قد مضى على إذاعة هذه السلسلة من الأحاديث أكثر من عام ولكن وصلتني أخيراً رسالة كريمة من أحد الإخوان التونسيين يطلب مني نسخا من أحاديثي عن شمال إفريقيا وعن اليمن وعن بطرا . فكان هذا الخطاب حافزاً لي على التفكير في طبعها واختيار عدد واف من الصور والخرائط لتوضيحها.

وهاهي اليوم بين أيدي القراء . لقد فضلت أن أراها مطبوعة كما ألقيتها دون تغيير اللهم إلا في بعض ألفاظ قليلة لا تغير من المعنى في قليل أو كثير كما فضلت نشرها في هذا الكتيب بالترتيب نفسه من رقم ١ إلى رقم ١٨ ، كما أذيعت ، ولم يزد عليها إلا فصل واحد جديد وهو الفصل ١٩ الخاص بالسودان ليكون الموضوع كاملا .

وكان من رأى بعض اخواني أن أتوسع في هذه الأحاديث بعض الشيء إذ أصبحت غير مقيد بوقت محدد أو عدد معين ، ولكني فضلت أن تبقى كما هي كما ألقيتها في الإذاعة لأن هذا من حقها ، كما يجب أن تظل على بساطتها واختصارها وما تتطلبه طبيعة الأحاديث المذاعة من الإلتجاء إلى ما يشبه أسلوب الخطابة والإلقاء في بعض المواضع مع الاضطرار إلى تكرار بعض النقط في أكثر من حديث واحد لأن المفروض أن كل حديث منها يجب أن يكون وحدة مستقلة ، والمفروض أيضاً أنه من الجائز جداً أن مستمع أي حديث لم يكن قد استمع إلى ما سبقه أو سيستمع إلى ما سيأتي بعده ..

وستظهر هذه العيوب أو بعضها للقارىء دون ريب ، وأرجو منه المغفرة فقد أوضحت له السبب .

إن بلاد العالم العربي ملأى ببدائع الآثار التى خلفتها لنا المدنيات العظيمة التى نشأت ثم تطورت وازدهرت فى مختلف أرجائه وأصبحت معينا ونبراسا للآخرين . ويجتاز العالم العربي فى أيامه الحالية فترة هامة فى تاريخه إذ أخذت شعوبه وحكوماته تحس بحاجتها الشديدة إلى التقارب والتعاون بل هى فى طريقها إلى وحدة تامة إنشاء الله بعد أن نجح الاستعمار الأجنبي الكريه ، لفترة من الفترات ، فى فصلها عن بعضها وتقطيع أوصال الأمة العربية .

وما أشد حاجتنا جميعاً إلى معرفة الشيء الكثير عن تاريخ وحضارة بعضنا البعض سواء فى الماضى أو فى الحاضر ، ولعل هذا الكتيب يساعد قليلا أو يساهم فى تحقيق ناحية من هذا الهدف ، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق ؟

أحمد فخرى

أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم
كلية الآداب — جامعة القاهرة

* * *

عند ما دعيت لإلقاء هذه السلسلة من الأحاديث عن أهم المناطق الأثرية القديمة فى بلاد الشرق العربى ، لبيت الدعوة راضياً فليس هناك ما هو أحب إلى نفسى من الحديث عن ذلك المجد القديم الذى كان لوطننا العربى الكبير ، ووصف شيء من آثاره الخالدة ، وتوضيح ما كان لبلادنا من فضل على مدنية العالم منذ آلاف السنين .

وستشمل هذه السلسلة من الأحاديث كلا من اليمن والحجاز والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن وشمال إفريقيا بما فى ذلك ليبيا وتونس والجزائر والمغرب .

سنتجول بين ربوعها واصفين أهم آثارها من عصر ما قبل الإسلام متحدثين عن تاريخها ، فقد كان فى هذا الجزء من العالم مهدان للحضارة أحدهما فى العراق والآخر فى مصر . وازدهرت فى كل من الإقليمين حضارة قائمة بنفسها أشعت على ما حولها ، واتصلت أكثر بلاد هذه المنطقة فيما بينها بصلة التجارة منذ نحو ستة آلاف سنة وأخذت منتجات كل منها تصل إلى الأخرى . وزادت تلك الصلة التجارية فلم تعد دروب القوافل أو الطرق البحرية طرقا تسير فيها التجارة فحسب بل كانت أيضاً طرقا تسير فيها باكورات المدنية فوصل نورها إلى كثير من البلاد التى لم تتهيأ لها المقومات التى كانت لمصر أو للعراق .

وإذا ألقينا نظرة على خريطة هذا الجزء من العالم نرى أن طبيعة البلاد تحتم صلتها ببعضها ، وإذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا أنه لا يمكن أن تظل واحدة منها بعيدة عن الأحداث الكبرى التى تتعرض لها غيرها . أخذت بلاد ما بين

النهرين تتقدم فى حضارتها فى الألف الرابع قبل مولد المسيح فلم نلبث حتى أحسسنا بأثر تلك الحضارة فى وادى النيل . ولم يقتصر الأمر على استخدام بعض السلع العراقية فى مصر بل أن المصريين بدأوا أيضا فى اقتباس بعض الأساليب المعمارية فى البناء بالطوب من إخوانهم فى العراق . وكانت مصر هى الأخرى تتقدم سريعا فى ذلك العهد وحققت ما لم يتيسر لغيرها وهو توحيد البلاد كلها تحت حاكم واحد ، ثم اندفعت بقوة تشييد حضارة فنية سرعان ما ظهر أثرها شرقا فى فلسطين ولبنان وسوريا منذ أقدم العصور وغربا إلى شاطئ إفريقيا الشمالى وجنوبا فى السودان ، فلما تقدم الزمن انتشرت حضارتها ونفوذها الحربى أو الثقافى فى بلاد الشرق الأدنى كله .

ويجب ألا ننسى أن الصلات التجارية ، ورغبة بعض البلاد فى الحصول على منتجات البلاد الأخرى ، هى إحدى العوامل الرئيسية فى نشر الحضارة وتبادل مظاهر الثقافة . فمنذ حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م وصلت ثقافة العراق إلى الهند من ناحية وشمال سوريا من ناحية أخرى . وانتشرت ثقافة مصر فيما حولها وبخاصة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكانت بلاد الشاطئ الفينيق على صلة مستمرة بالموانى المصرية . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، فقد كانت سفن الهند تأتى محملة بخيرات تلك البلاد إلى جنوبى الجزيرة العربية، فكان يأخذها تجار العرب القدماء ويحملونها مع البخور الذى اشتهرت به بلادهم واختصت به ، قاصدين أسواق الشام وبخاصة فى غزة فيبيعون مالديهم، ولكنهم لا يعودون بجمالهم إلا وهى محملة بكل ما يروق لهم مما يجدونه فى أسواق الشام من سلع العراق وسوريا ومصر وجزر البحر الأبيض .

وعلى طول هذا الدرب الطويل قامت الأسواق التجارية وبهذا عرفت بلاد شبه الجزيرة العربية حضارات الشمال والجنوب ، ولم تكن منقطعة الصلة بثقافتها ، وأثرى أهل جنوبى الجزيرة العربية ، وهم أهل اليمن القدماء ، من تلك التجارة وأقاموا القصور والمعابد وسدود المياه . وعرف العرب آلهة بابل

وآلهة سوريا ، كما عرف المصريون بعض آلهة العرب القدماء وأقبلوا على احترام بعضها وعبادته . ووجدت الأساطير البابلية أذنا صاغية من الشعوب التى كانت تعيش فى بلاد العرب وفى سوريا ، وبقى الكثير منها فى آدابها .

وإلى جانب مصر والعراق كان هناك مركز هام للحضارة فى شمال سوريا أثر بدوره على حضارة الأناضول وجزر بحر إيجه وعلى جزء كبير من بلاد الفرات الشمالى ، وكان لسكان سوريا الشمالية دياناتهم وأساطيرهم وآدابهم التى قامت بدورها هى الأخرى فى التأثير على من جاورها من الشعوب .

وما أكثر الامبراطوريات الواسعة التى قامت فى أرجاء تلك البلاد ، تقوم فى مصر مرة وفى العراق مرة أخرى ، ثم يستولى الضعف على تلك البلاد عند ما تتعرض سلامتها إذ تغزوها الجحافل من أواسط آسيا فتنشأ دول جديدة من غير العنصر السامى مثل دولة الكاشيين فى العراق أو الحيثيين فى الأناضول أو دولة الفرس فى إيران فكانت كلها تقتبس حضارة البلاد التى تخضعها إلى أن ظهر اليونان فى عالم الوجود فأخذوا أسس مدنيتهم من بابل ومصر . ومع مرور الزمن أصبحت لهم مدنية خاصة ، فلما بدأ الاسكندر غزوه لبلاد الشرق تلاقت الحضارات القديمة مع تلك الحضارة الجديدة فأخذت كل منهما وأعطت . ثم جاء الرومان فأخضعوا الشرق لنفوذهم السياسى وحاولوا السيطرة على موارده وطرقه التجارية . وكان أثر الرومان غير قليل فى الشرق لأنهم كانوا يؤمنون بالتوطن فى البلاد التى يتم لهم فتحها وينشئون فيها مدنا جديدة على الطراز الرومانى على مقربة من أو فوق أنقاض المدن القديمة ، حيث تتوفر موارد المياه والأرض الصالحة للزراعة ، أو عند الأماكن ذات المواقع التجارية أو الحربية الهامة .

وإذا كنا نرى الآن كثيرا من المعابد أو الحصون المشيدة فى العصر الرومانى فى شمال إفريقيا أو فى مصر أو فى سوريا أو الأردن أو لبنان فليس

معنى ذلك أنه لم تقم معابد أقدم منها فى تلك المناطق . فقد قامت هناك المعابد والقصور والحصون ، وتخرب منها ماتخرب من أثر الحروب أو عاديات الزمن أو من أثر الجو أو الزلازل أو الحرائق أو فيضان الأنهار أو سيول الأمطار ، فلما آن الأوان لإعادة بنائها استخدموا ما وجدوه فى المكان من أحجار أو مبان بقيت من آثار العصور السابقة فلهذا لم يبق ظاهرا فى كثير من الأمكنة غير مبانى ذلك العصر المتأخر .

ثم جاءت المسيحية فلاقت من الرومان ما لاقت من اضطهاد ، ولم تكد تستقر الأمور حتى جاء القرن السابع الميلادى وأشرق نور الإسلام فى شمال الجزيرة وقام النبي العربى الكريم سيدنا محمد بن عبد الله يدعو إلى دين جديد ، ولم يمض غير قليل حتى خرجت جيوش المسلمين إلى الأمصار المجاورة تدعو إما إلى دخولها فى الإسلام أو تدفع الجزية للفاتحين فإذا لم يقبلوا هذا أو ذاك فلم يبق إلا القتال . وفى خلال ذلك تهدم الكثير من المعابد الوثنية وحطموا تماثيل الآلهة والأفراد ، وأخذت حضارة أخرى تحل محلها وهى الحضارة الإسلامية العظيمة .

لقد ظهر فى هذا الجزء من الكرة الأرضية ، أى فى بلاد العالم العربى ، أقدم المدنيات التى عرفها العالم ، وهى المدنيات التى أثرت بدورها على البلاد الأخرى، وكان لها النصيب الأكبر فى تطور حضارات اليونان والرومان التى تعتقد الشعوب الغربية أنهما أساس مدنيتها الحالية . ولكن فضل العالم العربى لم يقف عند ذلك الحد، فقد أعطينا سكان العالم الغربى من أوروبيين وأمريكيين وغيرهم خير ما يعتزون به ، أعطيناهم أسس الأخلاق، وأعطيناهم الموسوية والمسيحية والإسلام ، فلم يكن موسى وعيسى ومحمد إلا من أبناء هذا الوطن الكبير .

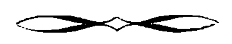
وما من شك أن المؤمنين بهذه الديانات الثلاث الذين يسبحون باسم الله العلى القهار ، سيد الأرض والسماوات يودون من كل قلوبهم أن يعرفوا

شيئا عن أصول هذه الديانات والعوامل التى ساعدت على انتشارها ، ولن يتيسر ذلك لهم ، إلا إذا درسوا تاريخ بلادهم القديم وعرفوا حضاراتها .

وسيكون هدف هذه السلسلة من الأحاديث ، أو الفصول ، هو ذكر أهم ما خلفته تلك المدنيات القديمة من آثار من عصر ما قبل الإسلام ، سأبدؤها ببلاد العرب بتمهيد عن تاريخها القديم ثم بوصف لآثار اليمن وبعد ذلك آثار المملكة العربية السعودية فإذا ما انتهينا من ذلك انحدرنا شرقا إلى العراق ، ومنها نتجه غربا مع الفرات إلى سوريه ثم إلى لبنان والأردن ثم إلى مصر وينتهى بنا المطاف فى شمال إفريقيا والسودان .

إن المثقفين من أبناء العالم العربى ينظرون إلى بقايا مدنياتهم القديمة نظرة إعجاب وإجلال ويودون معرفة الشيء الكثير عنها ، وعن أثر تلك المدنيات على بعضها البعض . وهناك كثير من العامة ينظرون اليها بإجلال أيضا ويطيلون التفكير فى طريقة بنائها ويحسون بعجزهم عن فهم أسرارها فيضعون حدا لذلك بقولهم إنها من عمل الجان لأن ما حاق ببلاد الشرق من تأخر جعلهم لا يؤمنون ان مثل تلك المبانى مما يستطيع الناس تشييده، وعلى هذا ينسبونها إلى قوى تفوق قوة البشر .

ليس هذا « الجان » الذى شيد تلك المبانى إلا العلم وحسن التنظيم ، ولم يكن مشيدوها إلا أجدادنا الذين نعتز بالانتساب اليهم ، وفى الفصل القادم سنعرف ماذا كانت عليه بلاد الجزيرة العربية قبل الإسلام .



٢

تاريخ العرب قبل الإسلام

***

ظهرت الدعوة الإسلامية فى بلاد الحجاز منذ أكثر من ١٣٧٥ عاما ، بشر بها النبى العربى سيدنا محمد بن عبد الله ، وبعد جهاد طويل بين المسلمين والمشركين كتب الله النصر للدعوة الجديدة وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . وما هى إلا سنوات قليلة حتى أخذت الجيوش العربية تخرج من قلب الجزيرة ففتح الله على المسلمين العرب ونشروا دينهم فى الأمصار ووطدوا ملكهم فيما جاورهم من البلاد . واستقر الكثير من جنود الجيوش الفاتحة فى البلاد التى قهروها ثم تبعتهم أفواج أخرى، وهاجرت القبائل فى فترات متقاربه ومتباعدة حتى غلبت الصبغة العربية على رقعة كبيرة من بلاد الشرق الأدنى بعد أن امتزج الفاتحون بأهلها وصارت اللغة العربية هى اللغة التى يتخاطب بها الآن أكثر من خمسة وسبعين مليونا من السكان يعيشون فى بلاد العرب والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ومصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر وبلاد المغرب .

كان ظهور الإسلام سببا فى النهضة التى شملت بلاد العرب فى ذلك العهد ولكن هل كانت الجزيرة العربية خالية من الحضارات قبل ظهور الإسلام ؟ وجوابنا على ذلك هو انه كانت هناك مدنيات فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام بأكثر من ١٥٠٠ عاما ، وأن شعوبا عربية الأصل فى جنوب الجزيرة وشمالها اتصلت بغيرها من حضارات العالم القديم وخلفت وراءها آثارا تحدثنا عما وصلوا إليه من تقدم ، وسنتكلم بايجاز عن أهم تلك الحضارات فى هذا الفصل .

كانت بلاد الشرق مهدا لأقدم الحضارات فى العالم منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، وتلاقت تلك الحضارات ببعضها واتصلت كل منها بغيرها عن طريق التجارة .

واحتاجت معابد تلك البلاد إلى البخور الذى تحرقه قربانا لآلهتها . فكانت تحصل على ما تريد من جنوبى بلاد العرب سـواء عن طريق البحر أو عن طريق القوافل البرية ، وهذا هو السبب الذى مهد لسكان تلك البلاد أن يصبحوا قابضين على ناصية تلك التجارة منذ أقدم العصور ، وكان أيضا السبب الذى جعلهم يتصلون بالحضارات المختلفة .

كانت موانى الشاطئ الجنوبى للجزيرة العربية مركزا للتبادل التجارى تأتيها السفن من الهند والعراق الجنوبى وفيها سلع تلك البلاد فتنقلها قوافل العرب من جنوبى الجزيرة إلى شمالها مارة بالمراكز التجارية الهامة مثل صنعاء ومأرب وبلاد الجوف ثم تمر بمكة والمدينة ومداين صالح وتبوك ومعان إلى أن تستقر أخيرا فى غزة على شاطئ البحر الأبيض . وكانت هناك أسواق فى كل بلد من البلاد الهامة الواقعة على هذا الطريق، كما كانت هناك طرق فرعية أخرى تربط بلاد العرب والعراق والشام بالطريق الرئيسى ، ومتى وصلت القوافل إلى غزة تبيع ما لديها ثم تعود محملة بما تجده فى أسواق غزة من سلع مصر والشام وآسـيا الصغرى وجزر البحر الأبيض المتوسط ، كما ذكرت فى الفصل السابق ، لتبيع بعضا منه فى الأسواق التى على الطريق ثم تصل آخر الأمر إلى المحيط الهندى لتبيع ما لديها إلى تجار الهند .

إذن لم تكن بلاد العرب مقطوعة الصلة بحضارات العالم، ولم تكن قوافل التجارة تنقل السلع فحسب بل كانت تنقل أيضا الثقافة ومظاهر الحضارات.

ولم يكن سكان بلاد العرب كلهم من البدو الرحل بل إن جزءا كبيرا منهم وبخاصة فى اليمن وفى بعض جهات الحجاز ونجد يسكنون القرى، وسنرى

أنهم كانوا يقيمون أيضا المعابد والقصور وسدود المياه وكانوا على درجة مرموقة من الحضارة .

كانت التجارة كما أسلفنا هى العنصر الهام فى نشأة تلك الحضارات ولكن طبيعة بعض المناطق وبخاصة فى الجنوب مهدت لظهور بعض الدويلات التى كانت تتنازع السيادة فيما بينها . وأهم مصادرنا عن دراسة تاريخ العرب قبل الإسلام هى آلاف النقوش التى عثر عليها فى تلك البلاد، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الغالبية العظمى من المناطق الأثرية لم تمتد اليها يد العلم بعد لتكشف عما عساه أن يكون قد تركه الأقدمون ، ولا يوجد فى متاحف العالم المختلفة إلا القليل مما عثر عليه الأهالى بين الخرائب، ولكن بالرغم من قلة تلك الآثار فاننا نستطيع أن نعرف شيئا غير قليل عن ماضى تلك البلاد.

لقد أشرت إلى التبادل التجارى وإلى السلع التى كان ينقلها تجار العرب على ظهور جمالهم ، وأقدم ما وصل إلى أيدينا من تلك البلاد هى بعض آثار مصرية صغيرة عثر عليها فى المشرق فى بلاد اليمن من بينها جعران باسم الملك أمنحوتب الثالث الذى عاش فى أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد، حصلت عليه أثناء زيارتى لليمن فى عام ١٩٤٧، ولكن هذا الجعران وما يماثله من آثار صغيرة لا تثبت شيئا أكثر من الصلة التجارية بين مصر وتلك البلاد وهى الصلة التى لا يشك أحد فى وجودها منذ عهد أبعد من ذلك بكثير .

ونقرأ فى القرآن والتوراة عن ملكة سبأ وزيارتها لسليمان الذى كان يعيش فى فلسطين حوالى عام ١٠٠٠ قبل ميلاد المسيح أى قبل البعثة النبوية بأكثر من ١٦٠٠ سنة ، وبالرغم من أن الأبحاث القليلة التى تمت حتى الآن لم تلق كثيرا من الضوء على حضارة الجزيرة العربية فى ذلك الوقت ، فاننا نعرف من التاريخ الأشورى أن الملك « تجلاتث - بليزر الثالث » الذى عاش حوالى عام ٧٣٦ ق . م أخذ من أهل سبأ فى اليمن جزية من الذهب والجمال

والبخور ، كما نعرف أيضا أن « يثع أمر » حاكم سبأ كان معاصرا لسرجون الثانى وسنحاريب ملكى أشور فى العراق فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع قبل الميلاد .

فهل كانت مملكة سبأ هى الدولة الوحيدة فى بلاد العرب ؟ كلا . فقد عاصرتها دول معين وقتبان وحضرموت ، وكانت هناك دويلات أقل منها شأنا مثل أوزان وسمعاى ، وبعد ذلك حمير وهى كلها فى جنوبى الجزيرة . وكان الثموديون واللحيانيون فى شمال الجزيرة وتركت كل منها آثارا تتحدث عنها وعن حكامها وعن بعض أعمالهم . وفى مناطق متفرقة من بلاد العرب نرى بقايا معابدهم وسدودهم ومقابر عظمائهم ، وسنتحدث عن أهمها فى الفصلين القادمين .

وكثيرا ما جاء ذكر ممالك العرب فى كتب مؤرخى اليونان والرومان وكثيرا ما أشار هؤلاء المؤرخون إلى تجارة البخور والعطور ، وأنها كانت فى أيدى العرب وهى التجارة التى اشتهرت بأنها كانت تدر على أصحابها ربحا قدره مائة ضعف أى أنهم كانوا يبيعون حمل البخور فى أسواق الشام بثمن يبلغ ما دفعوه فى ظفار فى جنوبى اليمن مائة مرة .

وكان الاسكندر الأكبر يريد أن يخضع بلاد العرب لسلطانه ولكنه لم يحاول ذلك، فلما علا شأن الرومان واتسع ملكهم أرادوا أن يخضعوا تلك البلاد لسلطانهم ليسيطروا على الطريق التجارى فأرسلوا فى عام ٢٤ قبل مولد المسيح حملة تحت إمرة القائد « أليوس جالوس » حاكمهم فى مصر ، يساعدهم حلفاؤهم النبط ، فلاقى الجيش أهوالا كثيرة حتى وصل بعد ستة شهور إلى نجران (وهى الآن فى جنوبى المملكة العربية السعوديه على حدود اليمن) ، ولكن قبل وصوله إلى مأرب التقى باليمنيين فى معركة قضت قضاء تاما على أمل الرومان فى السيطرة على تلك البلاد وعادت فلول الجيش مهزومة بعد أن هلك أكثر أفرادها .

وكان لسكان شبه جزيرة العرب ديانات ، وكان لهم آلهة يعبدونها ويقيمون لها المعابد وينحتون لها التماثيل ويقدمون لها القرابين ، ولهم أماكن يحجون اليها ، وكانت أعيادهم فرصة لازدياد التعامل التجارى . وكان لعبادة الأجرام السماويه ، وعلى الأخص القمر والشمس المقام الأول ، وكان لأكثر أولئك الآلهة كهنتها وكاهناتها ولكل إله تقاليد عبادته وأسطورته أو أساطيره ، وبعضها أصيل فى بلاد العرب والبعض الآخر جاءهم عن طريق صلتهم بالعراق وسوريا .

فلما انتشرت الديانة الموسوية وجدت لها مكانا بين العرب ، وآمن بها الكثيرون وأقاموا فى البلاد الواقعة على الطريق التجارى الكبير فى اليمن والحجاز ، فلما ظهرت المسيحية وجدت أيضا آذانا صاغية وآمن بها الكثيرون وبخاصة فى نجران وأقاموا الكنائس وأهمها كنيسة القليس فى صنعاء وكنيسة نجران .

ويروى التاريخ بعض أخبار المذابح التى تعرض لها المسيحيون على أيدى اليهود ، ويشير القرآن الكريم إلى أصحاب الأخدود الذين كانوا يرمون فى النار ، ثم نعرف أيضا انتصار الأحباش المسيحيين لإخوانهم فى الدين وغزوهم لليمن .

واشتد النزاع بين اليهود والمسيحيين والوثنيين قبيل ظهور الإسلام ، وأصبحت الأمور غير مستقرة ، ولكن شاء الله أن يظهر فى مكة إحدى المدن الهامة على الطريق التجارى النبى العربى الكريم فقضى على كل ما هناك من خلافات ووحد العرب للمرة الأولى فى تاريخهم فخرج هذا الشعب ليؤدى رسالته فى العالم وصبغ كل ما حوله من بلاد بصبغته حتى اليوم . تلك لمحة عابرة عن مكانة العرب قبل الإسلام وسنرى فى الفصلين القادمين شيئا مما خلفته مدنيتهم القديمة ، وسنرى أنها كانت مدنية رفيعة لها مكانتها بين مدنيات العالم القديم .

٣

آثار اليمن

***

فى يوم ١٥ من جمادى الآخرة عام ١٣٦٦ هجرية الموافق ٦ من مايو عام ١٩٤٧ كنت أقف أسرح الطرف فى بقايا سد مأرب العظيم ، وأنظر إلى تلك الجدران المرتفعة المبنية بالأحجار البركانية الصلدة ، أسير هنا وهناك أصور النقوش وآخذ بعض المقاييس وأكرر بين حين وآخر قوله تعالى :

« لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل ، خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . صدق الله العظيم .

كنت أكرر هذه الآيات الكريمة وأنا انظر إلى فتحات مياه ذلك السد وسير قنواته التى تروى كلا من الجنتين اللتين عن اليمين وعن الشمال ، وأستعيد فى ذاكرتى ما كتبه الأقدمون عن ذلك السد وما وصفه به من سبقنى إلى رؤيته من الزوار الافرنج . وفى كل خطوة أخطوها يزداد إيمانى بعظمة سكان بلاد العرب القدماء الذين استطاعوا تشييد ذلك السد العظيم الذى لا نجد له مثيلا فى جميع حضارات العالم القديم ، ولكن قبل أن أصف هذا السد ، أحب إن أشير إلى منطقة أثرية أخرى وهي منطقة صرواح .

يقع سد مأرب على مسيرة خمسة أيام من صنعاء يقطع فيها الراكب وديانا وجبالا ، وفى يومه الرابع يصل إلى مدينة اسمها صرواح يعيش أكثر أهلها الحاليين الذين لا يتجاوزن بضع مئات داخل معبد قديم مبنى بالحجر للاله «الموقاه» أعظم الآلهة السبأيين، وهو معبد مرتفع الجدران يزيد ارتفاع بعض أجزائه عن ثمانية أمتار حلى أعاليها بافريز على شكل رؤوس التيتل رمز ذلك الاله . وفى حوش المعبد، بين أكواخ الأهالى، ما زال يوجد النقش المعروف باسم لوحة النصر وهو مكتوب على أحجار ضخمة من المرمر ويتحدث فيه الملك « كريب إيل وتار » الذى عاش فى القرن السابع قبل مولد المسيح عن إخضاعه للبلاد المختلفة وتوحيدها تحت حكمه كملك سبأ . ثم يذكر ماقدمه من خدمات لمدينته وإلهها ويعدد حروبه المختلفة وأسماء المدن والممالك التى دانت له بالطاعة ، ومنها نجران وقطبان وحضرموت وأوزان حتى وصل إلى البحر الجنوبى ، وفى إحدى المعارك قتل من أعدائه ١٦,٠٠٠ وأسر ٤٠,٠٠٠ وليس المعبد الكبير هو كل ما بقى فى صرواح بل هناك معابد كثيرة أخرى تظهر منها أعمدتها وتتناثر بين خرائبها النقوش المختلفة، وبعضها ما زال محتفظا بسقفه الحجرى ، وينتظر من يقوم بتنظيف مدخله ليجد نفسه واقفا بين أبهائه . وعلى مسافة غير بعيدة من المعابد نرى بقايا سد لتخزين مياه السيول أقامه ملوك سبأ القدماء لاستخدامه فى زراعة الحقول ولكنه تهدم ولم تبق منه إلا بقاياه .

تلك هى خرائب صرواح التى كان يعيش فيها أقدم الملوك السبأيين ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مدينة مأرب على مسيرة أقل من يوم واحد على الأقدام ليجعلوها عاصمة مملكة سبأ التى دانت لها كل البلاد ، والتى قبض ملوكها على ناصية التجارة ودفع الأهالى لهم الضرائب فأصبح لهم من القوة والمال ما مكنهم من إقامة ذلك السد العظيم الذى زاد من رخاء البلاد كلها ، كما مكنهم من إقامة تلك المعابد العظيمة المنتشرة فى المنطقة .

ولو أنني حاولت وصف بقايا سد مأرب في هذا الحديث لما اتسع الوقت ، ويكفي أن أقول أن المهندسين القدماء اختاروا مكانا على مقربة من مأرب عند جبال بلق تتدفق منه سيول الأمطار التي تسقط على شرقي اليمن لإقامة ذلك السد .فهناك فتحة بين جبلين لا يزيد اتساعها عن ١٨٠ مترا ، بنوا أمامها حائطا ضخما فيه بوابتان أو فتحتان كبيرتان إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار . واستغل المهندس أحد جانبي الجبل وبنى أمامه جدارا سمكه ١٣ مترا وطوله ٨٠ مترا ولا يقل ارتفاعه عن تسعة أمتار ، وأقام في مدخله بوابة للتحكم في مرور مياه القناة التي كانت تروى الجهة اليمنى والتي كانت تمد أكثر من عشر قرى بالمياه . أما الفتحة اليسرى فكانت عند الناحية الأخرى من حائط السد الذي لا يقل طوله عن ستمائة مترا.وفي تلك الفتحة الثانية بوابتان تسير مياهما بين جدارين ضخمين في البداية ، وطول الجدار ١٤٣ مترا وعرضه أكثر من ١٢ مترا ، ثم تسير المياه بعد ذلك في قناة طولها نحو ١١٦٠ مترا تنتهي بحوض عظيم الاتساع فيه فتحات لأربعة عشر قناة تتفرع في نواحي الوادي المختلفة لري أراضيه الزراعية . وكثيرا ما تهدم هذا السد العظيم وأعيد ترميمه وكان آخر ترميم فيه هو ما قام به أبرهة الحبشي في عام ٥٤٢ ميلادية وترك قصة ذلك الترميم مسطرة على الجهات الأربع من أحد الأعمدة الحجرية التي ما زالت في مكانها عند السد .

يذكر أبرهة أنه كان في اليمن وكان الناس يبايعونه بالطاعة ، وأثناء ذلك جاءهم نبأ تهدم السد والحائط والحوض والمصرف فأمر بالعفو . . . . وبعث إلى القبائل لإحضار الحجارة اللازمة للأساس ، وكذلك الحجر والخشب ورصاص الصب لترميم السد . وتوجه أولا إلى مأرب وصلى في كنيستها ، وأمر فنبشوا الأنقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه . وأخذت بعض القبائل وغيرها من رجاله يتمردون على العمل ولكنه رأى أن قتلهم يعود بالضرر فعفا عنهم جميعا سواء الأحباش أو الحميريين . ويزيد النص فيذكر

أن أبرهة عاد إلى مأرب وعقد تحالفا مع بعض رؤساء القبائل . وجاءه وفد النجاشي ووفد ملك الروم ورسول من المنذر ورسول من الحارث بن جبلة يخطبون وده ، وأن العمل فى ترميم ما تصدع من السد استغرق أكثر من أحد عشر شهرا .

كان ترميم أبرهة للسد آخر ترميم معروف . وحدث بعد عدد من السنين أن تصدع مرة أخرى ، وكان ذلك هو سيل العرم المعروف الذى جاء ذكره فى القرآن ، والذى كان سببا فى تفرق أكثر من كانوا يعيشون فى المنطقة وتدهور مدينة مأرب .

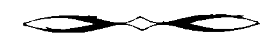
وخرائب مدينة مأرب كوم عال مرتفع لا تشغل المدينة الحالية إلا جزءا صغيرا منه ، وإذا سرنا خلالها أمكننا معرفة أمكنة بعض المعابد والسور القديم ، يتناثر فوقها كثير من الأعمدة والأحجار المنقوشة ، ولكن أهم المناطق الأثرية حول مأرب هى محرم بلقيس الذى يقع خارجها ومعبد العمايد وبقايا القرى الصغيرة الأخرى التى كانت حول المدينة الكبيرة .

ولا تقتصر المناطق الأثرية فى اليمن على صرواح ومأرب بل هناك كثير من المدن فى بلاد الجوف أهمها مدن براقش ومعين وهرم وغيرها ، وتقوم فيها كلها معابد فخمة تداعى بعضها وظل البعض الآخر قائما فى مكانه . كما توجد مناطق أثرية فى جهات أخرى فى اليمن وبخاصة فى حجة والنخلة الحمراء وظفار ، وتتصل بها أيضا بعض المناطق الأثرية فى جنوبى اليمن المسمى بالمحميات وفى حضرموت وعلى الأخص فى شبوه وبيحان .

هذه نظرة عامة على آثار اليمن ، وتلك هى بقايا حضارة العرب القدماء الذين كانوا يعيشون فى جنوبى الجزيرة ووصلوا إلى ذلك المستوى الرفيع من المدنية قبل ظهور الإسلام بأكثر من ١٥٠٠ سنة .

إن أكثر معابد اليمن وعلى الأخص فى صرواح ومأرب والجوف ما زالت تنتظر العمل العلمى والحفائر المنتظمة ، ولكن ما بقى قائما منها وما هو ظاهر فوق الأرض، وبخاصة فى مأرب، يملأ النفس بروعته ويدل على براعة المهندسين العرب القدماء الذين استطاعوا تشييدها .

لقد كان لى الحظ الوفير بزيارة أهم المناطق الأثرية فى الشرق الأدنى ، وطالما وقفت أمام المعابد المختلفة فى مصر وغيرها من الأمم القديمة أتأمل عمارتها وما بذله البناءون القدماء من جهود ، ولو سألنى سائل أين أضع آثار اليمن بين مثيلاتها مما خلفته الحضارات القديمة لأجبت على الفور إنها من أهمها. ولو سألنى سائل عن أى بلاد الشرق العربى أولى بدراسة الأثريين وعمل الحفائر العلمية لما ترددت فى القول بأن اليمن هى أولى البلاد بذلك . ولا يخامرنى شك فى أننا سنعرف الكثير عن حضارات الشرق القديم يوم يتم حفر مناطق اليمن فان تلك البلاد كانت محطات القوافل التى كانت تسير بين الأمم القديمة تحمل سلعها ومصنوعاتها ، سنعرف أيضا ما هو أهم من ذلك وهو الوقوف على أصدق المعلومات عن حضارة العرب القدماء وآدابهم وعوائدهم ودياناتهم، أولئك العرب الذين يعتز بأبوتهم أكثر من خمسة وسبعين مليونا من سكان هذا الجزء من العالم .



٤

شمال الجزيرة العربية

* * *

يقسم العرب أنفسهم إلى عرب عاربة وعـــرب مستعربة . فأما العرب العاربة فهم أهل الجنوب الذين أشرنا إلى مدنيتهم القديمة فى الفصل الماضى ، وأما العرب المستعربة فهم سكان الشمال . وكما يدل عليهم اسمهم ليسوا أصليين بل وفدوا إلى تلك المناطق من بلاد أخرى . هذا ما يرويه العرب أنفسهم ، فإذا ما أردنا أن نعرف نتائج علماء الدراسات الإنسانية فى هـذا الموضـوع نراهم يفرقون بين سكان الجنوب وسكان الشمال . فسكان اليمن وحضرموت وما يسمى بالمحميات هم بقايا جنس حامى يتصل بجنس البحر الأبيض المتوسط كان يسكن فى يوم من الأيام فى بلاد العرب كلها ولـكن وفد عليه فى الحقبة البليستوسينية جنس قوقازى صبغ شمال البلاد بصبغته السامية ذات الخصائص المعروفة وأهمها الرأس الذى يميل إلى الاستطالة واللحيـــة الطويلة الخفيفة والأنف الطويل المعقوف ، وهم يميلون إلى الطول فى القامة مع النحافة وهؤلاء متصلون بالصحراء الشمالية والسكان الذين يعيشون على حافة الهلال الخصيب .

وتختلف طبيعة البلاد أيضاً . فبينما يمكن الإكثار من الزراعة وإقامـة المدن فى الجنوب ويستطيع الأهالى أن يحيوا حياة مستقرة فى كثير من البقاع نرى الطبيعة قد حرمت الشمال من ذلك اللهم إلا بعض الوديان والواحات . ولـكن مهما اختلف جنوبى بلاد العرب عن شمـالها فى الجنس أو فى طبيعـة البلاد أو فى مظاهر الحضارة فقـد كانت تربطهما القوافل التى كانت تخترق البلاد إذ كانت تلك الطرق التجارية شرايين تجرى فيها الثروة كما تجرى فيهـا أيضاً الثقافة . كانت المدن تنشأ حيث تتيسر موارد المياه ، وفيها يقيم المشتغلون

بالتجارة جنباً إلى جنب مع المشتغلين بزراعة الأراضى ، أما البدو أو الأعراب فكانوا متفرقين فى أنحاء البادية حيث تطيب لهم الإقامة والمرعى . ولهذا لا نتوقع أن نجد آثاراً قديمة ذات أهمية إلا على طرق القوافل القديمة سواء أكانت بقايا المدن أو ما كان يتركه المسافرون فى الدروب من كتابات على الصخور ، وعلى الأخص فى الأماكن الظليلة التى كان يقضى فيها المسافرون بعض الوقت للراحة . وقبل أن أتحدث عن أهم المناطق الأثرية فى شمال الجزيرة ، أحب أن أذكر شيئا عن أقدم ما نعرفه عن تاريخ تلك البلاد . لقد ورد ذكر العرب وبلادهم فى النصوص الأشورية ولكنا لا نستفيد من تلك النصوص شيئاً غير تفاخر ملوك الأشوريين بخضوع البلاد لسلطانهم وتقديمهم الجزية لهم .

وفى القرن السادس قبل الميلاد زادت الصلة بين سكان جزر بحر إيجه وبين هذا الجزء من العالم وأخذت بعض سلعهم تجد طريقها إلى بلاد العرب وكان لأساليبهم الفنية أثرها فى تلك البلاد ، سواء فى شمال الجزيرة أو جنوبها. فزادت أهمية التجارة وزاد التنازع على الاستئثار بما تدره من أرباح . ومن أظهر الحوادث التاريخية فى ذلك العصر أن الملك البابلى « نبونهيد » الذى تولى الملك عام ٥٥٦ قبل مولد المسيح رأى أن موارد بلاد العرب جديرة باهتمامه فترك مقاليد المملكة فى بابل إلى ابنه ، وقام بإخضاع البلاد الواقعة على شاطىء البحر الأبيض أى فلسطين وفينيقيا ، ثم وجه التفاته فى عام ٥٥٠ إلى بلاد العرب وأخضع واحة التيماء التى كانت تتحكم فى طريق القوافل بين مكة ودمشق من ناحية وبين مصر وبابل من ناحية أخرى . وطاب لنبونهيد المقام هناك فبنى فيها قصراً شبيها بقصره فى بابل كما بنى فيها المعابد للآلهة البابلية وأصبحت هذه الواحة الواقعة فى شمال الحجاز مقراً له مدى ثمان سنوات ، ثم استمرت طويلا بعد ذلك فأثرت فى فنون وديانات تلك البلاد . ونحن وإن كنا نعرف شيئاً عن أخبار هذا الملك وجهوده إلا أن

المنطقة لم يبحث فيها أحد الآن ، ولا شك أنها تحتفظ بالكثير من بقايا ذلك العصر .

لم تكن تيماء هي المدينة الوحيدة في شمال الجزيرة بل كانت هناك مدن أخرى وكان يعيش في المنطقة شعوب عربية وصلت الينا نقوشها وبقايا مدنيتها أهمها الثموديون واللحيانيون الذين خلفوا وراءهم آلافا من النقوش على الصخور الواقعة على طرق القوافل وعلى مقربة من المدن التي كانوا يقيمون فيها .

كانت المدن الرئيسية لهؤلاء الثموديين واللحيانيين واقعة على طرق القوافل وأهمها في مدينة الحجر وهي المعروفة باسم مداين صالح وفي مدينة العلا إلى الشمال منها ، كما تركوا نقوشهم في أكثر الدروب الموصلة من الحجاز إلى نجد حتى الخليج العربي .

ولكن في أي وقت ازدهرت حضارة هؤلاء الثموديين واللحيانيين وفي أي قرن من القرون كانوا أصحاب السيادة على الطريق التجاري ، وما هو مدى صلتهم بالسبأيين أو المعينيين أو الحميريين في جنوبي الجزيرة ؟ تلك هي الأسئلة التي يحتار علماء الآثار واللغة عند الاجابة عليها . فبينما يقتنع البعض بأن الثموديين واللحيانيين عاشوا ابتداء من القرن الثامن قبل مولد المسيح في تلك المناطق يرى البعض الآخر انه لا يمكن أن يكونوا قد وصلوا إلى مدنيتهم التي نعرفها إلا حوالي مولد المسيح ، كما يقول فريق آخر أنه لم تكن لهم أي ثقافة هامة إلا قبل الاسلام بقرن أو قرنين من الزمان ، ولكنهم اتفقوا جميعاً في أنهم كانوا متأثرين في حضارتهم بما كان في البلاد الواقعة إلى الشمال منهم ، أي كانوا متأثرين بالعراق وسوريا ومصر .

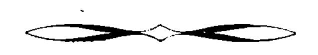
يكفينا هذا القدر من التاريخ ولنبدأ الآن بالاشارة إلى أهم المناطق الأثرية.
لقد سبقت الاشارة إلى تيماء ولكن هناك مناطق أخرى مثل خريبة والعلا

والقريتين فى الحجاز وجبل حموته والحطة فى عسير ولكن أهم المناطق الأثرية التى يمكن زيارتها هى مداين صالح فى الشمال ومدينة نجران فى الجنوب . ففى منطقة مداين صالح والعلا توجد مقابر كثيرة منحوتة فى الصخر حليت واجهاتها بالرسوم . وكثيراً ما نرى رسم النسر على واجهاتها فوق المدخل أحيانا وعلى جانبيه أحيانا أخرى ، كما نرى فوق مداخل المقابر البقايا المهشمة لرؤوس انسانية على كل من جانبيها رسم حية . وما من شك فى أن كثيراً من هذه المقابر ما زال مدفونا تحت الرمال والمنطقة كلها فى انتظار من يقوم بالبحث فيها .

أما نجران مدينة الأخدود فهى واقعة على حدود اليمن ، وفيها بقايا مدينة قديمة تحيط بها أسوارها . وأينما ذهب الانسان رأى بقايا مبانى القدماء ، ولا شك أنه يوجد بين خرائب نجران كثير من الآثار التى ترجع إلى العهد السبأى ، وعلينا أن ننتظر حتى تسمح الظروف باجراء حفائر فيها . وقد لعبت نجران فى تاريخ بلاد العرب دائماً دوراً هاماً ، وكانت مركزاً من أهم المراكز التجارية ولكن شهرتها الكبيرة فى التاريخ جاءتها من قصة اضطهاد المسيحيين فيها . فقد وجدت كل من اليهودية والمسيحية طريقها إلى بلاد العرب فى القرن الثالث الميلادى . وكان المركز الرئيسى لليهود فى يثرب أى المدينة المنورة فى الحجاز ، بينما كانت المسيحية أكثر انتشاراً فى الجنوب أى فى اليمن ، وكانت كل من الديانتين تعيش جنباً إلى جنب مع الأغلبية الوثنية . وحوالى عام ٤٠٠ ميلادية اعتنق الملك اليمنى «أب – كرب – أسعد» الديانة اليهودية وقام برحلته الشهيرة إلى المدينة لزيارة رؤساء اليهود فيها . واستمر خلفاء «أسعد» من الملوك على ديانتهم اليهودية بينما أخذت المسيحية تنتشر فى البلاد وعلى الأخص فى نجران التى شيدوا فيها كنيسة كبيرة أهداها ملوك الروم كثيراً من الهدايا والرخام والفسيفساء لزخرفتها ، وكان لها أسقف يعيش فيها .

كان مسيحيو نجران يعــادون اليهود وحـدث فى أيام الملك اليهودى « ذو نواس » الذى حكم بين أعوام ٥١٨ ، ٥٢٥ أن جاء رجل يهودى ومعه ابناه إلى نجران وخيرهما الأهـــالى بين اعتناق المسيحية أو الموت فتظاهر اليهودى باتباع دينهم ، ولـكنه فر إلى « ذو نواس » وطالبـــه بالانتقام فلبى طلبه وزحف بجيشه عـلى نجران ، وحفر الخنادق ووضع فيها الحطب وأمر أهلها باعتناق اليهودية وكل من عصاه أمر بوضعه فوق الحطب وأوقد فيـه النار فاستشهد أكثر أهلها . وأثار ذلك المسيحيين فى جميع الأرجاء ، وأرسل قيصر الروم إلى ملك أكسوم بالحبشة لينتقم للسيحيين ، فمات ذو نواس فى تلك الحرب وعادت المسيحية إلى نجران وغيرهـا من البلاد ، وآخر أساقفة تلك المدينة هو قس بن ساعدة الذى عاش حتى أيام عمر بن الخطاب .

تلك نبذة بسيطة عمـا فى شمـال بلاد العرب من مناطق أثرية ، وما من شيء يرجـوه المشتغلون بالآثار وبتاريخ العرب وحضارتهم أكثر من رؤيتهم بدء البحث العلمى فى تلك المناطق ولعل الوقت قـد حان فيتم الـكشف عنهـا حتى تقص علينـا رمال الصحراء قصـة ما احتفظت به من أسرار حتى الآن ليزداد علمنا بتاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام .



٥

العراق

***

ربما اختلف الباحثون فى علم الآثار فيما بينهم إذا أرادوا تحديد بدء مدنية العراق وهل ترجع إلى عام ٥٠٠٠ ق . م . أو إلى عام ٤٠٠٠ ق . م . ، وربما اختلفوا أيضا فى تحديد مدى أثرها على غيرها من الحضارات أو أيهما أبعد أثرا فى مدنية العالم هى أم مدنية مصر ، ولكنهم لا يستطيعون الاختلاف فى أنه حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م . كانت هناك حضارة فى وادى الرافدين ، وأن تلك الحضارة أقدم وأهم حضارات الشرق الأدنى ، وأن الشعب الذى انتشرت بينه تلك الحضارة كان يسمى شعب سومر الذى بلغ حدا كبيرا من التقدم ، وهو شعب غير سامى الأصل وربما كان ذا صلة فى نسبه بسكان شمال غربى الهند فى ذلك العهد . ولم تقتصر حضارة السومريين على جزء من العراق بل كانت فى الشمال والجنوب على السواء . ولم تكن البلاد موحدة بل كانت منقسمة إلى دويلات لكل منها حاكم ، تتطاحن فيما بينها وتتنازع كل منها على سيادة غيرها وقد حفظ لنا التاريخ وأيدته الاكتشافات الأثرية الحديثة أسماء كثير من تلك الدويلات وعثر المنقبون على آثار هامة فيها أظهرت مدى تقدم السومريين القدماء فى النحت وصناعة المعادن والأختام ، كما كانوا متقدمين أيضا فى فنون الزراعة . وعرفوا الكتابة وحذقوا فنون التجارة ، وبخاصة سكان الجنوب وكانت لهم صلات تجارية بشواطىء الهند والباكستان وعلى الأخص وادى السند وامتدت تجارتهم غربا حتى وصلت إلى مصر ، وكان ذلك قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد .

وبلغت تلك الدويلات حدا كبيرا من القوة والثروة مكنتها من إقامة المعابد ، والتقدم فى صناعة المعادن وبخاصة الحلى الذهبية ، ويكفى أن يلقى

الإنسان نظرة على الحلى التى عثر عليها فى مقابر « أور » وهى موزعة الآن بين متاحف بغداد ولندن وبنسلفانيا فى الولايات المتحدة الأمريكية ليقف مذهولا أمام ما بلغه سكان العراق القدماء من تقدم فى صناعتهم، وما وصلوا اليه من مهارة وذوق ورفاهية فى ذلك العصر البعيد .

ولكن العراق كان وثيق الصلة دائما بشبه جزيرة العرب، وكانت تفد إليه فى جميع عصور التاريخ قبائل عربية سواء من جنوبى الجزيرة أو من شمالها لتستقر فيه كلما اضطرها الجفاف أو تعرضت أرضها لخطر غيرها. ومنذ عام ٣٠٠٠ ق . م على الأقل أو منذ خمسة آلاف سنة أخذت بعض القبائل السامية تفد إلى العراق فى جماعات صغيرة تطلب المرعى والحياة ثم تستقر بعد ذلك . وفدت تلك القبائل مسالمة ثم استقرت، وتحضر بعضها بحضارة السومريين ولكن أكثرها بقى على بداوته يعيش على حافة الصحراء.

وفى مدينة كيش كان أحد هؤلاء الساميين يعمل ساقيا لحاكمها، كان اسم ذلك الساقى سرجون، ولسنا نعرف تفاصيل ما فعله حتى وصل إلى الملك ولكننا نراه فجأة وقد أصبح ملكا وأسس عاصمة جديدة وهى « اكد » . كان ذلك فى منتصف القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، واستمر سرجون فى فتوحه وسرعان ما قضى على كل المدن الأخرى، بل استولى على عيلام فى شرقى العراق ووصلت جيوشه إلى آسيا الصغرى وامتدت فتوحه إلى البحر الأبيض المتوسط . لم تأخذ سرجون نشوة النصر بل ظل على طبيعته الأصلية وها هو نص ما كتبه قبل موته بعامين يفتخر فيه بأصله البسيط : « كانت أمى وضيعة ولا أعرف من هو أبى . وكان خالى يقطن فى الجبل أما مدينتى «أزوبرانى» فكانت على شاطىء الفرات . لقد حملت بى أمى الوضيعة وولدتنى سرا ثم وضعتنى فى صندوق من الغاب وأحكمت غلقه بالقير ثم ألقت به فى النهر فلم أغرق وحملنى الماء إلى « أكى » الفلاح . فربانى أكى الفلاح وصرت

كابن له وعلمنى العمل فى الحقـول . وعند ما كنت أعمـل فى الحقول أحبتنى الإلهة عشتر فأصبح لى الملك مدى أربع وخمسين سنة » .

لم يأت الأكديون الساميون من الجنوب بل أتوا من الغرب واستقروا فى المنطقة التى حول بغداد الحاليه ، ولم تلبث دولة سرجون أكثر من قرن ونصف من الزمان إذ نزعت الملك منهم قبائل الجوتيين التى نزلت من الشمال حوالى عام ٢١٥٠ وبالرغم من أن هـذه القبائل كانت غـير متحضرة وكانت الفوضى سائدة فى الشمال إلا أن بعض المدن استمرت فى حضارتها مثل مدينة لجش التى كشفت الحفائر فيها عن آثار كثيرة أهمها تماثيل جوديا حاكمها التى تزين الآن إحدى قاعات متحف اللوفر بباريس .

عادت المدن السومرية إلى شىء من سلطتها القديمة ، ولـكن سرعان ما قضت عليها الجيوش العيلامية من الشرق وجيوش الأموريين من الغرب وظلت الأمور تتأرجح والدويلات تتناحر حتى ظهرت دولة سامية جديدة وهى دولة بابل ، وقد بدأت هذه الدولة السامية الجديدة عهداً زاهراً عندما جلس على عرشها الملك حمورابى فى عام ١٧٢٨ قبل الميلاد .

كان حمورابى شخصية عظيمة من شخصيات التاريخ ، وطد ملـكه فى الجزء الأول من حكمه الذى بلـغ اثنين وأربعين عاما ، قضى منهـا الإثنى عشر عاما الأخيرة فى أمن وطمأنينة بعد أن استتب له كل شىء وأثبت أنه لم يكن بطلا حربياً فحسب ، بل كان بطلا فى السلم والسياسة . كانت لاتغمض له عين عن أى مكان فى مملـكته ، ووحـد قوانين البلاد وأصدر بهـا قانونا كانت تحفظ نسخة فى المحاكم والمعابد ، وقد أبقى عليه الزمن كاملا .

لم ينظم حمورابى أمور التجارة أو الزراعة أو مشاكل الناس فحسب بل نظم أيضاً أمور الزواج والطلاق وأعطى للمرأة كثيراً من الحقوق ، فاحتلت

المرأة مكانة كبيرة فى بلاد بابل القديمة واشتغل بعضهن بالتجارة كما كان فيهن من احترفت مهنة الكتابة وكانت الفتيات يذهبن إلى المدارس لتلقى العلم ويجلسن جنباً إلى جنب مع الصبية .

ونشطت التجارة فى جميع البلاد ، وبخاصة مع البلاد السورية ، وكانت قوة جيش حمورابى قد نشرت الأمن على كل الطرق ، وأصبح لسلطته وحكمته شأن وأى شأن ، وظل اسمه يتردد بعد موته بأكثر من ألف سنة ، وأصبح أغنية من أغنيات التاريخ يرددها أهل العراق وسوريا وفلسطين .

ولم يبق شىء من مدينة حمورابى القديمة حتى نصفها ولكنها كانت دون شك شبيهة بالمدن الأخرى . وكان للآلهة البابلية وبخاصة الإله « مردخ » والإلهة عشتر المكانة الأولى فى البلاد ، وكانت أهم مميزات المعابد البابلية تلك الزقورات المرتفعة التى تعلوها غرفة الإله .

وقضت على أسرة حمورابى هجمات أخرى من الشعوب الهندو — أوروبية ، وسار موكب الزمن حتى علا نجم دولة جديدة وهى دولة الأشوريين التى حكمت شمال العراق . ويطول بنا الحديث إذا تكلمنا عن الأشوريين وعن أصلهم وديانتهم ، أو عن الشعوب التى اصطدموا بها وبخاصة الميتانيين وهم جنس آرى كان يقطن أعالى الفرات وشعب الأراميين الساميين الذين جاءوا من الغرب .

لم يكن الحجر متوفراً فى جنوبى العراق ولكنه متوفر فى شمالها ، ولهذا بنى ملوك الأشوريين معابدهم وقصورهم من الحجر وزينوها برسوم تمثل حروبهم ومظاهر حضارتهم .

وكون الأشوريون إمبراطورية عظيمة من أكبر الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ،وغزا ملوكهم كل ما حولهم من البلاد،واصطدموا بالإمبراطورية

المصريةوغزوا مصر نفسها، ولم يأت عام ٧٠٠ قبل الميلاد حتى كانت الإمبراطورية الأشورية تحكم الهلال الخصيب بأسره . وقامت القصور الفخمة والحصون المنيعة فى كل مكان ، وكانت عاصمتهم نينوى من أعظم البلاد التى رآها العالم القديم ، كما أقاموا القصور والمعابد وبخاصة فى نفر وخرسباد ، ولكن لنترك الآن تلك المدن وآثارها فستكون بابل عاصمة الكلدانيين ونينوى عاصمة الأشوريين موضوع الفصل القادم .

وأسس الكلدانيون امبراطورية جديدة فى القرن السابع قبل الميلاد ، وتوسعوا مرة أخرى وأخضعوا البلاد لهم حتى ظهرت الامبراطورية الفارسية، ثم جاء الاسكندر الأكبر فتغيرت الأوضاع ودخلت بلاد العراق عصرا جديداً فى تاريخها .

وقبل أن أختم هذا الحديث عن أهمية تاريخ العراق أود أن أذكر شيئا ولو قليلا عن فضل مدنية العراق على مدنية العالم .

فلو تركنا فضل السومريين فى الكتابة والزراعة ، فانه لا يمكننا أن نغفل فضل آدابهم ودياناتهم هم والبابليين على الشعوب الأخرى وبخاصة على العبرانيين، إذ كانت أساطيرهم هى القصص الذى استمرت تتناقله تلك الشعوب أجيالا بعد أجيال .

وإذا كان لمصر شىء من الفضل على الحضارة اليونانية فللعراق فضل كبير أيضا وعلى الأخص فى علم الفلك والتنجيم وبعض أصول الديانة .

وإذا درسنا قوانين حمورابى التى مضى عليها أكثر من ثلاثة آلاف وستمائة سنة لا يمكننا إلا أن نحنى الرأس لذلك المصلح السامى العظيم الذى يرى فيه العلماء أهم من محص القوانين وبوبها وأحسن التشريع بين الناس ونظم المعاملات بينهم .

وإذا كان بعض الملوك الأشوريين قد قسوا ، بل وتغالوا فى قسوتهم على أعدائهم ، وكانت جيوشهم تحرق البلاد وتبيد الأمم لجدير بنا ألا نقسو فى حكمنا عليهم لأن لكل زمان عاداته ولكل شعب ظروفه ، ولا يمكن أن أن يستقيم حكمنا على حدث من أحداث الماضى إذا أخضعناه لعواطفنا أو ديننا أو تقاليدنا الحالية .

لقد أدى العراق أجل الخدمات للعالم القديم ، وكان عنصراً قوياً فعالا فى حضارة الجنس البشرى ، وذا أثر مباشر على حضارة اليونان والرومان ، ووصل سكانه القدماء إلى أوج المدنية والرفاهية ، وسنرى فى الفصل القادم كيف كانت بابل وكيف كانت نينوى .

٦

بابل ونينوى

* * *

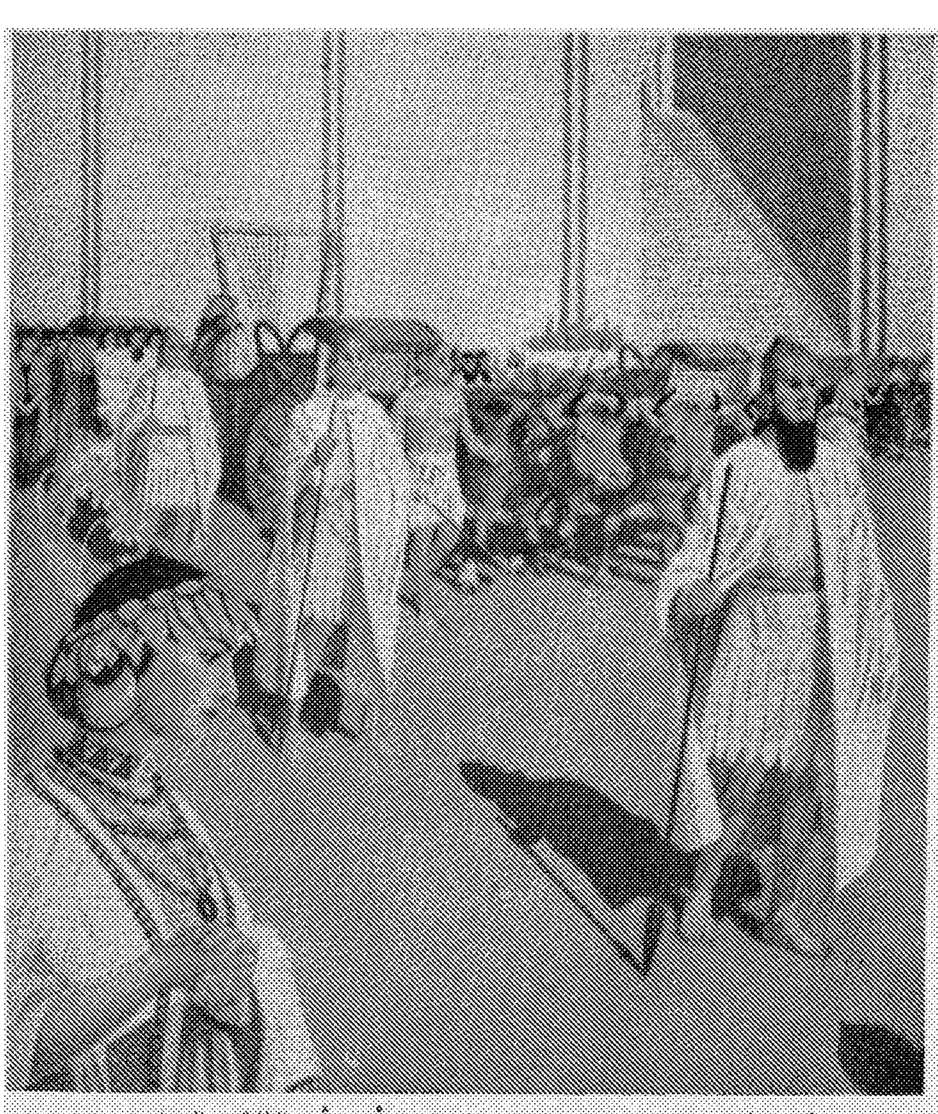
بابل أو « باب — ايل » بالعبرية أو « باب — ايلي » باللغة الأكدية ليست إلا ترجمة حرفية لاسمها القديم ومعناه باب الله ، مما يدل على أنها كانت منذ الألف الثالث قبل الميلاد مدينة لها مكانتها الدينية الخاصة . وموقعها الآن لا يبعد كثيرا جدا عن بغداد ، وتقع على الضفة اليسرى من الفرات على الطريق الموصل بينها وبين الحلة .

وزائر خرائبها الحالية يحس بالكثير من خيبة الأمل إذا كان قد سبق له قراءة وصفها وتاريخها ، وما كانت عليه من عظمة وفخامة ، ولكنه مايلبث أن يلتمس العذر فقد بنيت مبانيها من الطوب اللبن ، وكثيرا ماتعرضت للحروب والغزوات وأعمل فيها أعداؤها السلب والتحطيم .

لعبت بابل مدينة حمورابي دورا كبيرا في تاريخ البلاد بل وفي تاريخ جزء من غرب آسيا ، وفي عهد الملك الأشوري سنحاريب (٧٠٥ — ٦٨١ ق. م) كانت تقوم بثورة بعد أخرى فخربها تخريبا تاما ، ولم يجد بأسا بعد تخريبها من تحويل مجرى إحدى القنوات ليغرق أطلالها كلها بالمياه ، بعد أن فر عنها من بقي من أهلها ، فأصبحت خرابا وكومة من أطلال متداعية .

ولكن في عصر الامبراطورية الكلدانية أي في القرن السادس قبل الميلاد قرر الملك « نبوخذ نصر » (نبختنصر) أن يجعل عاصمته في بابل فأغدق عليها المال الوفير وفاق كل أسلافه في حبه لعظمة ما يشيده .

ومصادرنا عن دراسة بابل هي النتائج التي كشفت عنها الحفائر وعلى الأخص حفائر البعثة الألمانية بين أعوام ١٨٩٩ ، ١٩١٧ ، وما حدثتنا به



الموكب الجنازى للملكة السومرية «شوباد» من أسرة أور الثالثة حوالى عام ٢١٢٤ – ٢١٠٢ قبل الميلاد . رسم تخيلى نرى فيه الملكة والأتباع وهم يسيرون ليدفنوا مع الملك المتوفى فقد عثر فى هذا القبر على جثث عشرات من الأتباع ، كما عثر فيه على كثير من الأثاث الجنازى الذى نرى بعضه فى هذه الصورة (حتى العربات والثيران ، فإنها دفنت أيضاً مع الميت) وعلى الحلى التى تلبسها الملكة . وهذا الكنز العظيم موزع الآن بين متاحف بغداد ولندن وجامعة بنسلفانيا . ومن دراسة هذه الحلى الذهبية وغيرها من الأدوات نستطيع إدراك المستوى العظيم الذى بلغه الفن سواء فى دقة الصناعة أو فى جمال الذوق ، كما ندرك أيضاً مدى ما بلغته مدنية العراق فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ العالم .

الوثائق القديمة نفسها ، ثم ما كتبه عنها المؤرخون القدماء وبخاصة هيرودوت الذى زارها ووصف مبانيها حوالى عام ٤٥٠ قبل الميلاد . ذكر هيرودوت بأنها كانت مشيدة فى وسط سهل فسيح ، ويحيط بها سور طوله ستة وخمسون ميلا ، أما سمكه فقد كان من الاتساع بحيث تستطيع عربة تجرها أربعة جياد أن تجرى فوقه . ونعرف أيضاً عن تلك المدينة أنها كانت على جانبى الفرات وكان يصل بين جانبيها جسر جميل . ولما كان الطوب اللبن هو المادة المستخدمة فى البناء فقد كسا نبوخذ نصر سطح الجدران بالقرميد الملون ذى الألوان الزرقاء والصفراء والبيضاء وعليها الرسوم المختلفة . وكان يعلو منازل المدينة كلها بناء يتسامى فى ارتفاعه وهو زقورة شاهقة ذات سبع طبقات يعلوها هيكل ، قال عنه هيرودوت ، بأنه كانت تتوسطه مائدة كبيرة من الذهب ، وفيه أيضاً سرير تحليه الزخارف تنام عليه كل ليلة إحدى الكاهنات تنتظر زيارة الإله . ذلك هو برج بابل إحدى عجائب الدنيا الذى لم يبق منه شيء ، والذى كان يقوم فى أسفله معبد للاله مردخ العظيم الذى اشتهر فى جميع بلاد العالم القديم . وكان يشق المدينة بين الهيا كل المختلفة طريق واسع مرصوف بالأحجار ، وعلى جانبيه جدران من القرميد الملون فيها ما يمثل مائة وعشرين أسداً ، وفى آخر الطريق بوابة عشتر الشهيرة التى زينت جدرانها بالقرميد الملون ذى الزخارف النباتية ورسوم الحيوانات . وقد أقام الألمان فى متحف برلين بوابة بحجم بوابة عشتر وضعوا فيه ما وجدوه من بقاياها وصنعوا نماذج لما زال منها . وكان فى الناحية الشمالية من برج بابل ربوة أقام نبوخذ نصر فوقها أجمل قصوره ، الذى أحسن الفنانون زخرفته وتزيين أرضيته وجدرانه ، وأقام الأسود الضخمة من حجر البازلت عند مدخله . وعلى مقربة من ذلك القصر شيد نبوخذ نصر عجيبة أخرى من عجائب العالم وهى الحدائق المعلقة وكانت مقامة طبقات يعلو بعضها البعض حتى وصل ارتفاعها إلى مايقرب من خمسة وعشرين متراً ، وفى أعلاها وضعوا طبقة سميكة

من الطمى وغرسوا فيها الزهور والأشجار الكبيرة ، وكانت ترفع مياه الفرات إليها بواسطة آلات داخل المبانى . أما سبب إنشائها فقد قيل فى إحدى الروايات أن نبوخذ نصر تزوج من ابنة ملك الفرس التى لم تكن معتادة على حرارة جو العراق فحنت نفسها إلى خضرة بلادها وزهور وديانها فأراد أن يعوضها عن ذلك فبنى لها ذلك المبنى وفى أعلاه تلك الحديقة التى كان يجلس فيها مع زوجه وجواريها ، يتمتعون بالخضرة والأزهار والهواء ويشرفون منها على المدينة ويمتعون الطرف بمناظرها .

تلك هى المدينة التى خضعت بعد قليل للفرس فنهبوها واستلوا منها الحياة فأخذت تنزل رويداً رويداً إلى عالم النسيان وأخذ الخراب يحل بمبانيها الشامخة . فلما جاء الاسكندر أراد أن يجعل منها عاصمة ملكه فى الشرق وأمر بإصلاح ما تهدم منها وأمر عشرة آلاف رجل بأن يرفعوا الأنقاض عن مبانيها ولم يكد يقارب عمله الانتهاء فى عام ٣٢٣ ق.م حتى وافاه أجله ، وماتت معه فكرة إحيائها . وكأن القدر كان لبابل بالمرصاد فلم يكد سلوقوس أحد قواد الاسكندر يستقر فى العراق ويعتلى العرش فى عام ٣١٢ قبل الميلاد حتى فكر فى تشييد عاصمة جديدة على نهر الدجلة وهى مدينة سلوقيه ، وكان ذلك إيذانا بانتهاء أهمية بابل وسرعان ما أصابها الخراب مرة أخرى .

ولا يكاد زائرها اليوم يرى شيئا من مجدها ولكن البقية القليلة من المبانى والخرائب تذكره بأحداث التاريخ ، إنه لا يصدق أن تلك هى بابل ذات الصيت الواسع العريض ، بابل التى حوت من عجائب الدنيا ما سارت بذكره الركبان ، بابل التى تردد ذكرها مرات ومرات فى التوراة ، والتى كانت موضع سبى العبرانيين . ولكن مهما أصابها من خراب فإن ذكراها ستبقى على صفحات التاريخ .

ولننتقل الآن إلى خرائب عاصمة أخرى وهي نينوى عاصمة الإمبراطورية الأشورية . فلنصعد هذه المرة إلى شمال البلاد حتى نصل إلى الموصل ، وهناك على مقربة منها نرى مجموعة كبيرة من المناطق الأثرية يعود بعضها مثل تل حسونه إلى فجر تاريخ العراق وكثير منها يرجع تاريخ أبنيته القائمة إلى أيام الإمبراطورية الأشورية ، مثل خرسباد ، ونمرود ، وأشور ، ونينوى . انها كانها ملأى بالآثار وأقام فيها ملوك أشور المعابد والقصور ، وأنشأوا بينها الطرق ، ولنقصر وصفنا الآن على نينوى .

ولكن قبل أن نتحدث عن آثارها يجب أن نضع فى ذهننا أنها كانت قرية غير ذات أهمية كبرى فى العهد السومرى أى منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، وكانت أيضاً عامرة بأهلها فى أيام حمورابى وكانت مدينة ذات شأن فى عهد الأشوريين ولكن اهتمام سنحاريب بها بعد تخريبه لبابل مدينة حمورابى وتصميمه على بناء عاصمة تفوقها جمالا هو الذى هيأ لتلك المدينة عصرها الذهبى .

بنى سنحاريب قصوره ودور الحكومة ومعابده على ضفاف نهر دجلة وكان طول الأسوار التى أنشأها ذلك الملك ، والتى كانت موازية للنهر ، يبلغ ما يقرب من ميلين ونصف أما الأسوار داخل المدينة فكانت حوالى ثمانية أميال . وعز على سنحاريب أن تشرب عاصمته الجديدة من مياه دجلة غير الصافيه فأنشأ قناة صناعية هائلة لتجرى فيها مياه الأنهار من الجبال الشمالية صافية عذبة . وقد كشفت الحفائر فى خرائب تلك المدينة عن آثار على أكبر جانب من الأهمية بين تماثيل ضخمة بلغ فيها الإتقان حد الإعجاز ، وبين نقوش على الحجر لمناظر للصيد وللحرب . وكانوا يقيمون الأقواس عند مداخل القصور ويكسون جدرانها بالطوب المزجج ذى الألوان الزاهية ويقيمون على الجانبين تماثيل لثيران كبيرة ذات رؤوس إنسانية .

وفى الصور التى على جدران قصره نرى الكلدانيين والآراميين والأرمن والفلسطينيين وأهل كليكليا وأهل صور يعملون كادحين ، واستخدم فى تزيينه الذهب والفضة والنحاس وأثمن أنواع الأخشاب وأجمل وأمتن الأحجار ، وعلقت عليها الستائر المطرزة بالفضة ، وقامت التماثيل الضخمة قرب الأبواب وكانت تمثل أبقاراً من العاج ومن المرمر تحمل ما يشبه كؤوس الأزهار . كما كانت هناك تماثيل من البرونز للأسود والثيران وكان لايضارعه قصر فى العالم القديم ، بل لم يعرف التاريخ الحديث شيئا يماثله . وأقام الحدائق وحفر فيها بركة ماء كبيرة ، وزرع حولها الأشجار والزهور التى جلبها من البلاد البعيدة وأطلق فيها الحيوانات المختلفة .

ولكن القصر كان يحتوى أيضاً على كميات كبيرة من الأسلحة وكان يحتوى على ما هو أهم من التماثيل ومن التحف والسلاح ، إذ كان يحوى مكتبة عظيمة . وسار من جاء بعده على سنته فأقاموا القصور واهتم حفيده « أشور بانيبال » اهتماما خاصة بمكتبته فجمع فيها الكثير من علوم السابقين وآدابهم وقصصهم وأساطير الآلهة ، وكانت تكتب على ألواح من الطين المحروق ، وقد عثر فى خرائب ذلك القصر على ٢٢٫٠٠٠ (اثنين وعشرين ألفاً) منها وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطانى .

ولكن هذه الدولة التى أخضعت بلاد الشرق لم تستمر طويلا وقضى عليها الفرس وتحطمت مدنها وقصورها ، وأصبحت خرابا .

ان من يتجول الآن فى خرائب نينوى لايكاد يتصور ماكانت عليه من مجد وفخامة ، فيرى هناك بقايا من معبد أو يرى أحد التماثيل الكبيرة أو جزءاً من عمود . ولكن من يزور المتاحف سواء فى العراق أو استانبول أو لندن أو برلين أو فى الولايات المتحدة الأمريكية يدرك الكثير من عظمة نينوى وملوكها . ومهما كان رأى الناس فى قسوة هؤلاء الملوك فيجب ألا ننسى أفضالهم الأخرى ، فسلام على بابل وسلام على نينوى ، وحيا الله مدنية العراق .

٧

سوريا وآثارها

***

إذا ألقينا نظرة على خريطة سوريا (الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة) نراها قد اتصلت بالعراق من الشرق وبالبحر الأبيض المتوسط من الغرب واشتركت حدودها مع الحدود التركية فى الشمال ، وتقع إلى جنوبها صحراء الجزيرة العربية الشاسعة ، وبعبارة أخرى تتوسط أمما وحضارات مختلفة . ولا يمكن لبلد له مثل هذا الموقع إلا أن يتأثر بكل ما يحدث فى الأمم التى حوله ، ولا يمكننا أن نتصوره إلا ميدان صراع سياسى وثقافى وحربى بين تلك المدنيات ولا يمكننا أن نتصور لهمدنية فى وقت من الأوقات دون أن تكون تلك المدنية متأثرة بإحدى المدنيات المحيطة بها ، سواء أكانت مدنية بلاد النهرين أو مدنية الأناضول أو مدنية مصر ، أو مدنية بحر إيجة أو غيرها من المدنيات .

وإذا رجعنا إلى تاريخها القديم نجد ما يؤيد ذلك ، فبالرغم من أنه توافرت لها كل مقومات المدنية فقد كانت فى كل عصورها متأثرة بغيرها واستطاعت أن تمزج بين حضاراتها القديمة وبعض الحضارات الأخرى وتكون من ذلك المزج أسلوبا خاصا بها يعرف بالفن السورى .

ومهما قلنا عن أثر البحر فى الحضارة السورية أو التاريخ السورى، ومهما بالغنا فى الحديث عن أثر الحضارتين العراقية والمصرية عليها ، فإن الصحراء العربية كانت صاحبة الأثر الأكبر فى تاريخها. فإن سوريا بحكم موقعها فى شمال الجزيرة العربية كانت منتجعا لكثير من القبائل العربية منذ أقدم عصور التاريخ ، يجدون فى جناتها وأنهارها مايعيد إليهم نعمة الحياة إذا ماقست عليهم الطبيعة فأصابهم الجدب بضع سنوات متتالية فلم تنزل الأمطار ، أو تكسرت

سدود اليمن فيضطر أهلها إلى الرحيل ، كانت تصل إلى سوريا موجات من تلك القبائل من حين إلى حين، وكان هذا شأنها منذ فجر التاريخ وما زال شأنها أيضا – إلى حد ما – حتى اليوم .

ويرجع تاريخ سوريا القديم إلى عصور موغلة فى القدم ، ونعرف أنه منذ الألف الثالث قبل الميلاد كانت فيها دويلات على درجة كبيرة من المدنية سواء فى الناحية الشرقية مثل تل الحريرى على الفرات أو رأس الشمرة فى شمال اللاذقية فقد بلغ كل من هاتين الدويلتين حداً كبيراً من المدنية وكان لحضارة رأس الشمرة بالذات أثر بعيد على ماجاورها من البلاد سواء فى الدين أو فى الأدب أو فى اختراع الأبجدية فى الكتابة .

فإذا وصلنا إلى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد وقرأنا نصوص حروب ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية فى آسيا أو المراسلات الدبلوماسية بين ملوك مصر وملوك وأمراء آسيا ، أو درسنا المناظر المرسومة على جدران مقابر طيبة فى مصر لم يبق لدينا شك فى أن سوريا بلغت فى ذلك العصر شأوا كبيراً من المدنية وأن ذلك لم يكن قاصراً على بلد أو منطقة معينة بل كان يشمل البلاد كلها ، ويصادفنا عند قراءتنا لتلك النصوص كثير من أسماء المدن التى كانت مهمة فى ذلك العهد وكثير منها مازال باقياً ومعروفا بالأسماء ذاتها حتى اليوم .

ولا يتسع المجال لذكر شىء عن سوريا فى عهد الأموريين أو الآراميين أو عند اصطدامها بالحيثيين أو ما نالها من غزو وتخريب على يد الأشوريين أو الفرس ، أو تأثر حضارتها بالحضارة اليونانية فى العهد اليونانى وبخاصة منذ غزو الاسكندر وتأسيس الدولة السلوقية ، أو ما تعرضت له فى عهد الرومان ، فإن ذلك أمر يطول ذكره ، ولأقصر حديثى على أهم المناطق التى ما زالت تحتفظ بآثار قائمة يمكن زيارتها .

فأما عن بقايا الآثار فقد قل أن نجد مدينة سورية كبيرة لا يوجد على مقربة منها بعض الآثار القائمة وعلى الأخص ما كان تاريخه يعود إلى العصر اليونانى والرومانى بل وأقدم من ذلك عهداً ، مثل دمشق وحلب وحماه وتدمر وبصرى وكثير من مناطق حوران وجبل الدروز ، وقد كشفت الحفائر عن كثير من الآثار الهامة فيها وهى معروضة الآن فى متاحف سوريا وبخاصة فى متحفى دمشق وحلب . غير أن أكثر المناطق غنى بالآثار القائمة هى تدمر وبصرى . فأما تدمر فسنخصص لها الفصل القادم ، وسنتحدث الآن عن بصرى ، ولكن قبل الكلام عن بصرى أحب أن أذكر شيئا قليلا عن دمشق . لعبت دمشق منذ فجر التاريخ دوراً هاماً فى تاريخ سوريا ، وكانت العاصمة فى عهد الأراميين قبل ثلاثة آلاف سنة واشتهرت بمعبدها الوثنى الذى كان مشيداً للاله السورى « هدد » . وبعد أحداث كثيرة بين مد وجزر وتشييد وتخريب أصبحت مرة أخرى عاصمة للبلاد فى عام ١١١ قبل مولد المسيح عندما جعل منها انطيوخس التاسع عاصمة لملكه ، فأخذت تتغلب عليها الصبغة الإغريقية وبنيت فيها المعابد الكبيرة ثم جاء الغزو الرومانى فلم تصبح دمشق عاصمة لسوريا فحسب بل أصبحت ملتقى الشرق والغرب ، وأهم مراكز التجارة فى هذا الجزء من العالم . كانت المعابد الكثيرة تقوم فى دمشق وأهمها معبد جوپتر الدمشقى ،وشيدت فيها الحصون تحيط بها الأسوار ،وجاء العصر البيزنطى وبنيت كنيسة القديس يوحنا المعمدان مكان معبد جوپتر ، ولما جعلها الأمويون عاصمة ملكهم شادوا على مقربة من المكان نفسه أى مكان المعبد القديم والكنيسة المسيحية الجامع الأموى الكبير .

ولهذا يرى زائر دمشق كثيراً من بقايا العصر الرومانى حول المسجد ، كما يرى بقاياه أيضاً فى القلعه والأسوار . وبالرغم من أن هذه الأحاديث لا تتعرض للمتاحف إلا أنى مضطر للاشارة إلى متحف الآثار بدمشق لأهميته وما حواه من روائع الآثار ويمكن لزائره أن يرى فيه كنيس صالحية الفرات وعليه مناظر

ملونة جميلة من تاريخ العبرانيين وحوادثهم ، وهـو من أهم الآثار التى عثر عليها فى أرض سوريا نظراً لندرة موضوعه ويرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثالث الميلادى .

تكفينا هذه المقدمة عن تاريخ سوريا وأهمية آثارها ومدنيتها ، ولنتجه نحو الجنوب فى بلاد حوران لنزور منطقة من أهم مناطق الآثار فى العالم العربى كله . تلك هى مدينة بصرى التى كانت من أهم مراكز التجارة على طريق القوافل الكبير بين المحيط الهندى وساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهى بصرى التى زارها سيدنا محمد بن عبد الله وهو صبى مع عمه وقابل فيها الراهب بحيرا ، ثم زارها مرة أخرى مع قافلة تحمل تجارة للسيدة خديجة . ولكن تاريخها القديم يرجع إلى عهد أقدم من زيارة النبى الكريم ، فقد ورد اسمها فى الآثار المصرية قبل الرسالة المحمدية بألفى عام ، وكانت دائماً مدينة هامة من المدن السورية ، ولعبت دوراً هاماً فى عهد الأراميين وفى عهد اليونان وكانت ثانى مدينة هامة فى دولة النبط الذين جاءوا من جنوبى الجزيرة واستوطنوا فى شمالها وكانت مدينة بطرا عاصمة لهم ، وكانت لبصرى أهميتها الكبرى فى عصر الرومان بل أصبحت عاصمة للولاية العربية ومقراً لحكامها ، ودخل كثير من أبنائها فى خدمة الرومان وتولوا المناصب الهامة والمرجح أن فيليب العربى الذى وصل إلى منصب الامبراطور فى عام ٢٤٣ ميلادية كان على الأرجح من أبناء بصرى فاهتم بشأنها ورفع من قدرها وزاد فى مواردها .

وعندما دخلت المسيحية إلى هذا الجزء من العالم كانت بصرى من المناطق الهامة ، وكان لكنائسها وديورها وأسقفها رأى مسموع خصوصاً وأنهم كانوا متعصبين لفكرة الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وكان بينهم وبين غيرهم من البلاد السورية منازعات طويلة وتعرض رجال دينها للاضطهاد الشديد ، على الأخص فى القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادى .

وكان يقيم فى بلاد حوران ، أى فى بصرى وما حولها ، قبيلة الغساسنة الذين كانوا فى الأصل من اليمن ونزحوا إلى جنوبى سوريا ثم اعتنقوا

المسيحية فى آخر القرن الرابع الميلادى . ونعرف من تاريخ هؤلاء الغساسنة أنهم كانوا متصلين بالروم وأن أحد ملوكهم وهو الحارث الغسانى زار القسطنطينية عام ٥٤٣ ، وكان المناذرة أيضاً يلعبون دوراً كبيراً فى تاريخ ذلك الإقليم عند ظهور الإسلام .

وحفظت لنا آثار بصرى كثيراً من الآثار الوثنية ربما كان أهمها كلها المسرح الذى قل أن نجد له نظيراً فى بلد آخر ، والذى ما زال محتفظاً بالكثير من رونقه وكان يتسع لجلوس أكثر من ١٤٠٠٠ زائراً فى وقت واحد . وأينما اتجه الانسان بين خرائبها يرى بقايا المعابد والقصور والحمامات الرومانية والقلعة والكثير من الكنائس وعلى الأخص الكاتدرائية ودير بحيرا الراهب، كما قامت فيها كثير من العمائر الإسلامية من جوامع ومساجد ومدارس لأهمية المكان من ناحية وارتباطه بحادث هام فى التاريخ الإسلامى من ناحية أخرى وهو زيارة النبى عليه السلام لها .

وأصابت بصرى وحوران ضربة قوية عند ما هاجمها القرامطة عام ٩٠٦ ميلادية ، ولكن رغم ذلك التخريب ورغم الزلازل ورغم نقل حجارة آثارها إلى دمشق وغيرها ورغم أن أكثر مبانيها القديمة ما زال مغطى بالأنقاض ، فإن ما كشفت عنه مديرية الآثار السورية حتى الآن وما ظل فى مكانه منذ أقدم العصور ، كاف لجعل بصرى من أهم المناطق الأثرية الجديرة بالزيارة فى بلاد الشرق ، فهى إحدى الدرر الغالية فى ذلك العقد وسنتحدث فى الفصل القادم عن درة أخرى فى أرض سوريا وهى تدمر عروس الصحراء .

٨

تدمر : عروس الصحراء

* * *

فى منتصف القرن الثالث الميلادى كان الشرق يردد ثلاث كلمات هى «تدمر» وملكها «أذينة» وملكتها «زنوبيا» أو الزباء . فأما تدمر أو بالميرا فليست إلا تلك المدينة الجميلة التى تقع فى شمال الصحراء السورية فى منتصف الطريق بين الفرات والبحر الأبيض والتى كانت تسيطر على طريق القوافل والتجارة فى ذلك العهد ، والتى كانت بحق عروس الصحراء . وأما ملكها أذينة فقد أحسن الاستفادة مما كان يدور حوله من النزاع بين الفرس والرومان ، فانحاز إلى الرومان وقدم لهم أكبر المساعدات عندما تمكن من قهر « سابور » ملك فارس الذى كان قد تقدم بجيوشه إلى سوريا وهزم الرومانيين ونهب المدن السورية وأذل أهلها . انتقم أذينة من الفرس فعلا شأنه واتخذ لنفسه لقب ملك وأخذ يوسع ملكه ، واتجه شرقا حتى احتل جزءاً من العراق واتجه شمالا فاستولى على أرمينية ولكنه قتل غيلة وظن الناس أن الأمر قد انتهى . ولكن زوجة أذينة الملكة « زنوبيا » أو « الزباء » أو « زينب » كانت من أولئك النسوة اللاتى يمتزن بقوة الشكيمة وكانت الساعد الأيمن لزوجها أثناء حياته ، ولهذا سرعان ما تقدمت لتحمل العبء كوصية على ابنها .

ولأمر ما أحست الزباء أن الرومان يعدون العدة لاذلال تدمر والغدر بها فخاصمتهم وصممت على تخليص بلاد الشرق منهم ، وخرجت على رأس جيشها فهزمت جيوش الرومان وفى سرعة خاطفة كونت امبراطورية ضمت سوريا ومصر والأناضول واضطرت الرومانيين إلى الجلاء عنها .

وأدرك الامبراطور الرومانى أورليان أن حياة امبراطوريته باتت فى خطر ، وانه إما أن يقضى على تدمر أو تقضى تدمر عليه ، ولهذا أمر بإعداد

الجيوش من جميع أنحاء الامبراطورية ، ولم يبخل بمال أو جهد فى حشدها وسار على رأسها إلى آسيا حيث التقى بقوات التدمريين فانتصر عليها فى عدة معارك بعضها فى انطاكية وبعضها فى حمص ، ولم يقف عند ذلك بل واصل سيره فى الصحراء إلى أن وصل إلى تدمر نفسها وحاصرها وأسر الملكة زنوبيا وأخذها لتسير ذليلة كسيرة النفس فى موكب نصره ، وأقامت هى وابنها فى روما حتى ماتت . ونال مدينة تدمر أثناء تلك الحرب ضرر كبير ولكن الضرر الأكبر الذى نالها كان بعد فترة أخرى من الزمن عند ماثارت المدينة وقتلت جنود الحامية الرومانية فعاد اليهم أورليان مرة أخرى واستولى عليها وأباح لجنوده أن يفعلوا كل ما اشتهته أنفسهم من القتل والحرق والنهب ، وهدم كثيرا من معابدها وأحرق منازل أهلها وحمل أكثر من نجا من رجالها ليبيعهم رقيقا فى البلاد المختلفة .

كانت حملة أورليان الثانية هى النكبة الحقة التى أحاقت بتدمر فلم تستطع بعد ذلك أن تستعيد شيئا من مجدها ، وظلت محطة صغيرة للقوافل ومركزا ثانويا للتجارة حتى فتحها القائد العربى خالد بن الوليد فى العام الثانى عشر من الهجرة أى فى عام ٦٣٣ ميلادية .

ولم تكن جيوش أورليان وحدها هى السبب فى تحطيم آثار تدمر بل كانت هناك عوامل أخرى أهمها الزلازل المختلفة ، ورغم ذلك كله ورغم ما نال المدينة من تخريب عند ما ثارت على حكم بنى أمية فى عهد مروان الثانى آخر خلفائهم ورغم عوامل الزمن وتأثير الجو فان الكثير من معابدها القديمة ما زال قائما يشمخ بأنفه . أعمدتها باسقة وأسوارها عالية وزخارفها مازالت تحلى جدرانها ، تشهد بتفوق التدمريين واقتدارهم وتتحدث عما بلغوه من مدنية وحضارة منذ آلاف السنين .

ولكن ألم يكن هناك وجود لتدمر قبل أيام اذينة والزباء ؟ والجواب على ذلك هو أن تدمر مدينة قديمة ، ونعرف أن أهلها كانوا من الكنعانيين

ووردت إشارة إلى تلك المدينة على أثر يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد كما ورد ذكرها أيضا فى النصوص الأشورية التى يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، وكان يقطنها إذ ذاك الأراميون، ولكنها كانت طيلة تلك القرون واحة صغيرة على طريق القوافل ولم تعظم أهميتها إلا فى العصر الرومانى . وكان من أسباب ازدياد أهميتها فى ذلك العهد توسطها بين امبراطوريتى الفرس والروم ، فأصبحت صاحبة النفوذ الأول فى التجارة عند ما كانت تمر بها بضائع الشرق الأقصى فى طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط بعد زوال ملك النبط فى الجنوب وتحطيم الرومان لبطرا فى شرق الأردن . كان التدمريون يجنون أرباحا كثيرة من تلك التجارة وكان عليهم حماية طرق القوافل فأنشأوا لهم جيشاً قوياً ليسيطروا به على الصحراء ، وكانوا متحالفين مع الرومان ، وعرفوا كيف يستفيدون سياسياً وعسكرياً واقتصاديا من موقع بلدهم حتى وصل الأمر بأذينة ، كما سلف القول، إلى تفكيره فى بسط نفوذه على ما جاوره من البلاد وكاد هو وزوجته ينجحان فى ذلك لولا وقوف روما لهم بالمرصاد وحشد جميع قواتها ومواردها للقضاء عليهم .

ولنبدأ الآن جولتنا بين آثارها . فمن يزورها الآن يرى نفسه فى مدينة كبيرة تبلغ أسوارها نحو كيلومترين فى الطول وعرضها كيلومتر واحد ، هذا هو قلب المدينة الذى يحوى معابدها ومنشآتها وأهم منازلها ، وكان يوجد خارج السور ضواحى أخرى يقيم فيها الكثير من السكان .

وفى وسط المدينة طريق طويل مرصوف بالأحجار طوله نحو ١١٠٠م تقوم على جوانبه الأعمدة وتتفرع منه طرق أخرى ، وتقوم فى مفارق الطرق أقواس النصر .

ويمكن لزائر تدمر (بالميرا) أن يجوس خلال الأماكن التى كانت تقوم على جوانبها حوانيت التجار ، كما يمكنه أن يزور المعابد المختلفة وبخاصة المعبد

الكبير الذى كان مقاما للاله بعل ، والذى يعتبر بحق من أروع آثار العالم وأجملها ، يمتاز بجمال نسبه ودقة نحت أعمدته ومتانة جدرانه ، وفى العهد المسيحى فى القرن الخامس حولوا المعبد ليصبح كنيسة ثم جاء الإسلام لحولوه مرة أخرى فى القرن الثانى عشر الميلادى فأصبح مسجداً .

وهناك معبد آخر لم ينل منه الزمن ما نال من المعبد الكبير وهو معبد الاله « بعل شامين » أى سيد السماوات وهو فى حالة لا بأس بها ويعطينا فكرة صادقة عن معابد ذلك العهد .

وليست المعابد وبقايا الأسواق وأقواس النصر وغير ذلك من المبانى العامة هى كل ما بقى من آثار تدمر ، فقد عثر الباحثون هناك على كثير من بقايا المنازل ، ولكن هناك آثار أخرى حول المدينة لا تقل فى أهميتها عن المعابد إن لم تزد عليها ، وهى المدافن التدمرية التى تتميز بها تلك المدينة ولا نراها بهذه الكثرة أو هذه الهندسة والتنظيم فى غيرها من الحضارات .

وتتناثر تلك المدافن فى مساحات واسعة ، أكثرها فى المكان الذى يطلق عليه السكان المحليون وادى القبور . وهى أنواع ثلاثة أحدها يتألف من ردهة مربعة فيها أعمدة ، وقد حفرت فى جوانب الجدران أمكنة لتوضع فيها توابيت الموتى ، وبعض هذه المدافن مزخرف ويحتوى أحيانا على هيا كل لإقامة بعض الطقوس الدينية .

غير أن هناك نوعا آخر من المقابر محفوراً تحت الأرض ويحتوى على أقبية ليضعوا فيها الموتى ، وكانوا يضعون أمام كل مدفن تمثالا نصفياً من الحجر لصاحبه أو صاحبته . وأحيانا نرى مناظر كاملة تمثل الميت وبعض أفراد عائلته ، وكثيرا ما نرى فى الردهة الأولى لهذا النوع من المدافن مناظر ملونة تمثل بعض الأساطير اليونانية أو الرومانية .

وأهم أنواع المدافن هو النوع المعروف باسم الأبراج وهى أبنية مرتفعة متناثرة فى المنطقة لا يقل عددها الآن عن خمسين برجا وهى تتألف من طبقات عديدة ، وفى جدرانها تجاويف لوضع توابيت الموتى ، وهذا النوع خاص بتدمر وببعض البلاد التى تأثرت بحضارتها ، ويرجع تاريخ أكثر هذه الأبراج إلى القرنين الأول والثانى الميلاديين .

لقد كانت لأهل تدمر حضارتهم ومدنيتهم ، كانوا ساميين فى أصلهم وفى لغتهم وفى ديانتهم ، وان كانوا قد زالوا وزالت مدنيتهم إلا انهم خلفوا وراءهم ما يشهد بتفوقهم ، وفرضوا اسمهم فرضا على التاريخ .

أن زائر المنطقة يسير الآن بين بقايا طرقها ومعابدها ، ويقف خاشع الرأس أمام عظمة مبانيها . لقد كان أكثر تلك المبانى قائما عندما حكم اذينة وحكمت الزباء ، وبالرغم من انه قد مضى على موتهما نحو ١٧٠٠ سنة ، فان روحيهما مازالتا ترفرفان على المكان ، ولا يستطيع الزائر أن يغالب شعوره فى التفكير فيهما ، ولا يستطيع إلا أن يشعر نحوهما بالاكبار والاحترام ، فقد استحقا مكانهما فى سجل الخالدين فى التاريخ .

٩

لبنان وآثاره

❋ ❋ ❋

فى بردية مصرية محفوظة الآن فى متحف لينتجراد فى الاتحاد السوفيتى نقرأ تقريرا عن رحلة قام بها أحد الكهنة المصريين إلى لبنان ، يتحدث فيها عن مهمته وما لاقاه فى رحلته من متاعب ولكنه يصف لنا فيها أمير جبيل ويقص تفاصيل ما جرى بينهما من مناقشات ممتعة . قام ذلك الكاهن المصرى برحلته حوالى عام ١٠٨٠ قبل ميلاد المسيح لإحضار بعض كتل من خشب الأرز لتجديد سفينة الاله أمون فى طيبة . كانت مصر قد أخذت تجتاز فترة ضعف فى تاريخها ولم تصبح لها سلطة سياسية على أكثر بلاد الشرق الأدنى ، ولكنها ظلت حتى فى أيام ضعفها ذات نفوذ ثقافى ودينى فى تلك البلاد وأهمها لبنان فأمير جبيل ينكر سلطان ملك مصر ويأبى أن يعطى خشب الأرز إلا إذا قبض الثمن مقدماً ولكن ذلك لايحول دون احترامه للاله أمون وايمان شعبه بدينه . وينكر الأمير أى سلطان لأحد عليه ولكننا نعرف من سياق القصة أن ساقيه كان مصرياً وأنه كان يحب الموسيقى المصرية وكانت لديه فى قصره مغنية مصرية أرسلها إلى الكاهن لترفه عنه بأغانيها المصرية عندما اشتد به الحزن لفشله فى مهمته .

وليست هذه الاشارة إلى أرز لبنان أو صلة مصر بتلك البلاد هى أقدم ما نعرفه ، بل أننا نعرف صلة مصر بلبنان منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، وانه حوالى عام ٣٠٠٠ قبل مولد المسيح ربما كان هناك معبد مصرى فى جبيل ، وكان المصريون يحرصون منذ أقدم عصورهم على حصولهم على خشب الأرز وزاد طلبهم له فى الدولة القديمة إذ نعرف مثلا أن الملك سنفرو فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد أرسل أسطولا من أربعين سفينة إلى

لبنان عادت محملة بأخشاب الأرز ، وما زالت بعض كتل مما جاءت به تلك السفن قائمة فى أمكنتها داخل هرم سنفرو بدهشور فى حالة جيدة رغم مضى أكثر من أربعة آلاف وستمائة سنة .

وبالرغم من أن لبنان كان ممراً بين الحضارات المختلفة وقد تأثر بالعراق وشمال سوريا وجزر البحر الأبيض ، إلا أن تأثير الحضارة المصرية كان أقوى منها جميعاً فى كل العصور . ونحن إذ نحاول الرجوع إلى أقدم عصور تاريخ لبنان نرى أن قبائل الأموريين السامية الأصل هى أقدم من وصلت الينا أخبارهم ثم تلاهم الكنعانيون — وهم ساميون أيضاً — استوطنوا الساحل اللبنانى منذ الألف الرابع قبل الميلاد .

ويطول بنا الحديث إذا تكلمنا عن تاريخ لبنان فى عصوره المختلفة وبخاصة أثناء الألف الثانى قبل الميلاد ولكن مهما حاولنا الاختصار لا يمكننا أن نتجاوز عن ذكر أثر لبنان فى حضارة العالم القديم عندما أخذ سكانه من الفينيقيين يستولون على مقاليد التجارة فى البحر الأبيض المتوسط . كانت السيادة البحرية فى مبدأ الأمر لمدينة صيدا ولكنها انتقلت بعد ذلك إلى مدينة صور ، وبالرغم مما كان يجرى فى العراق والأناضول ومصر من أحداث وما تعرضت له لبنان من حروب واحتلال فان نشاط أهلها فى التجارة لم يفتر ، وظلت على عهدها فى أيام التوسع الأشورى فى القرن السابع قبل الميلاد وكذلك فى أيام التوسع الفارسى فى القرن السادس .

وأخذ الفينيقيون يؤسسون المراكز التجارية فى حوض البحر الأبيض وبخاصة على الشاطىء الافريقى الشمالى ، ولما أخذ اليونان فى الظهور فى عالم التجارة كان الصراع بين الفينيقيين واليونانيين شديداً إلى أن انتهى الأمر بظهور الاسكندر الأكبر وغزوه للبنان مع باقى بلاد آسيا فانتقلت السيادة

فى تجارة البحر الأبيض إلى اليونان بعد أن ظلت فى أيدى الفينيقيين أى اللبنانيين القدماء نحو ألفى سنة .

ومر على لبنان عصر السلوقيين فتركوا فيه بعض الآثار ثم جاء العصر الرومانى فأخذت بعض مدنه الساحلية وخاصة صور وصيدا وبيروت فى الانتعاش ، وقامت الآثار فى مناطقها المختلفة ، فلما انتشرت المسيحية ، وحلت محل الوثنية أخذت المعابد القديمة تضمحل وبنى داخلها أو فى مكانها كنائس وأصاب لبنان ما أصاب غيرها من أثر النزاع فى الكنيسة خلال القرن السادس الميلادى وأوائل السابع ، حتى إذا جاء شهر يوليو عام ٦٣٦ وحدثت موقعة اليرموك صار للعرب السيادة على سوريا كلها ومنها الشاطئ الفينيق وبدأت البلاد فصلا جديدا من تاريخها .

من تلك المقدمة البسيطة عن تاريخ لبنان نستطيع أن ندرك أن آثارها ترجع فى تاريخها إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، وأن أقدمها فى مدن الساحل وخاصة فى مدينة جبيل (جبيلة) التى تقع على بعد ٤٠ كيلو مترا شمالى بيروت ، وفى مدن صور وصيدا وبيروت ، التى وردت أسماؤها فى النصوص المصرية وكذلك فى منطقة طرابلس والبقاع وخاصة على مقربة من موارد المياه مثل بعلبك . وأهم المعابد الأثرية القائمة إلى اليوم فى لبنان هى دون شك معابد بعلبك التى ستكون موضوع الفصل القادم ، ولنتكلم الآن عن باقى المناطق الأثرية .

ففى منطقة جبيل التى أشرنا إليها أكثر من مرة عثر الأثريون بعد الحرب العالمية الأولى على جبانة أمراء المدينة الذين حكموا المنطقة حوالى عام ١٩٠٠ - ١٨٠٠ ق م وكان بعضها مازال سليما ، ولم تعبث به يد السارقين فوجدوا فيها حلياً وأوانى وأدوات مختلفة أكثرها من مصر ولكن بعضها من العراق أو جزر بحر إيجه ، وبعضه مصنوع محلياً . كان أمراء جبيل (جبلة) فى ذلك الوقت على صلة تامة بمصر ويدينون بالولاء لملوكها ، وكان فى مدينتهم منذ فجر

العصر التاريخى معبد عثر على بعض أحجاره وعليها أسماء ملوك مصر باللغة الهيروغليفية كما عثر أيضاً على تماثيل مصرية ، وجميع تلك الحلى والآثار ومعها آثار فينيقية هامة عثر عليها فى المكان نفسه محفوظة الآن فى متحف بيروت. إلا أن زائر منطقة جبيل يمكنه أن يزور بعض المقابر المنحوتة فى الصخر ويرى بقايا أسوار المدينة والكثير من بقايا المعابد التى أقيمت فى العصر الرومانى مثل المسرح وبعض المبانى الأخرى .

كانت مدينة جبيل أقدم مدن لبنان ومركز تجارتها وحضارتها وكان لمعابدها ودياناتها أثر كبير على المدن اللبنانية الأخرى سواء على ساحل البحر أو فى داخل البلاد . ولنترك الآن جبيل ولنذهب إلى صيدا فنزور موقع الجبانة الفينيقية الشهيرة التى عثر فيها على آثار على أكبر جانب من الأهمية والتى نقلت إلى متحف اللوفر وغيره ، وحيث يمكننا أيضاً أن نزور بقايا معبد الإله الفينيقى « أشمون » الذى رأى فيه الرومان بعد ذلك إلههم أدونيس ، والذى عثر فيه العلماء الذين قاموا بالحفائر على كثير من النقوش الفينيقية وبقايا التماثيل والنصب وغير ذلك من الآثار التى تفرقت بين المتاحف المختلفة

ولننتقل الآن إلى صور منافسة صيدا فى التجارة والنفوذ ، ومن أهم بلاد لبنان فى جميع عصور التاريخ ، والمدينة التى لعبت دوراً كبيراً فى تجارتها مع مصر خلال الألف الثانى قبل الميلاد .

إننا نعرف الكثير عن تاريخ هذه المدينة فىالعصور القديمة ولو ضربنا صفحا عن صلتها بمصر فانا نقرأ كثيراً عنها فى التوراة ، نعرف ملكها حيرام الذى كان على صلة وثيقة بالملك داود . والذى أرسل أخشاب الأرز ومهرة الصناع الفينيقيين لبناء هيكل سليمان ، ونعرف أيضا أن أهل هذه المدينة هم الذين أسسوا مستعمرة تجارية جديدة على شاطىء إفريقيا الشمالى على مقربة من خرائب مدينة أقدم منها ، وهى المستعمرة التى عرفها اليونان باسم

« كارثادشات » وعرفها الرومان باسم « قرطاجنة » والتى تنازعت السيادة على التجارة مع بلاد اليونان القديمة ثم أصبحت المنافسة الكبرى لأمها صور .

وليس أدل على قوة ومناعة مدينة صور من قصة مقاومتها للاسكندر الأكبر سبعة شهور ، بينما لم تستطع أى قوة حربية فى بلاد الشرق أن تقف أمامه .

وقد طغى البحر الآن على مدينة صور القديمة وأصبح أكثرها تحت مياهه ولكن بالرغم من ذلك فقد أمكن دراسة بعض بقاياها تحت المياه، وما زال مجال العمل فى المستقبل متسعاً . ونرى فى متحف بيروت بعض الآثار التى عثر عليها فى صور وخاصة المقبرة الشهيرة التى نقلت إلى الطابق الأسفل بذلك المتحف وعلى جدرانها رسوم ملونة لبعض الأساطير اليونانية الهامة .

ولا يمكن للمتحدث عن آثار لبنان أن يغفل ذكر منطقة أخرى رغم قلة ما فيها من آثار باقية من معبدها القديم ، وهى مغارة « افقا » على مسافة ٨٥ كيلومتراً شمال بيروت حيث توجد عين أدونيس المقدسة منذ أقدم العصور . فقد شيد القدماء منذ أقدم العصور على مقربة من المكان الذى ينبع منه نهر أدونيس هيكلا ، جدده الرومان وعبدوا فيه الإلهة « ڤينوس » وهى الزهرة بدلا من الإلهة الفينيقية القديمة . وتقول الأسطورة الرومانية ان أحد ملوك قبرص أحب ابنته فولد لها منه ولد سماه أدونيس كان له جمال أخاذ فوقعت الإلهة ڤينوس فى حبه ، وبينما كان أدونيس الشاب يصطاد فى جبال الأرز بلبنان أرسل عليه الإله مارس الذى كان يغار منه دبا مفترسا هجم عليه وجرحه جرحا مميتا ، فلما علمت ڤينوس بذلك أسرعت إلى حبيبها وبذلت كل ما فى طاقتها لانقاذه ولكنها لم تنجح ، ومالت عليه وقبلته القبلة الأولى والأخيرة ، وأخذ الدم يجرى منه حتى أصبح نهرا . وفى كل عام عندما تتساقط الأمطار فى شهر فبراير وتجرف معها بعض الأوكسيدات المعدنية الحمراء من

الجبال فتحيل مياهه إلى لون الدم كان القدماء يقولون إن دماء أدونيس تجددت كعادتها كل عام فيقيمون الاحتفالات . لقد مضى على ذلك وقت طويل وزالت ديانة الفينيقيين وديانة اليونان وديانة الرومان وحل مكانها المسيحية والإسلام ولكن بعض أهالى المنطقة مازالوا ينظرون إلى المنطقة نظرة خاصة ويتبركون بها سواء فى ذلك بعض الشيعة أو المسيحيين يضيئون المصابيح للزهرة ، ويقول المسيحيون إنه كانت هناك كنيسة للعذراء ، ويعلقون هم والمسلمين قطعا من الأقمشة على شجرة من أشجار التين لشفاء المرضى وقضاء الحاجات . وهكذا تأبى تقاليد الشعوب إلا أن تستمر رغم مرور الأيام . ومازال صدى التاريخ يرن فى آذان أبناء البلاد كأنما يذكرهم هذا الصدى بمجد غابر قديم ورثوه ، وعليهم أن يستعيدوا أيامه الزاهرة .

١٠

مَعابِدُ بَعلبك

* * *

أجملت فى الفصل السابق بعض تاريخ لبنان وأثره فى حضارة الشرق ، وأشرت إلى فضل الفينيقيين السامي الأصل على التجارة ونشر المدنية ، كما أشرت أيضا إشارات عابرة إلى ما فى بلاد الجمهورية اللبنانية من آثار وما اتصل ببعض مناطقها من أساطير ، وسأخصص هذا الفصل لمنطقة واحدة فقط وهى منطقة بعلبك التى تحتل مكانة كبيرة بين المناطق الأثرية الهامة فى العالم العربى ، والتى تشمخ بقايا معابدها حتى اليوم وتنازع أرز لبنان شرف العزة وحق الخلود .

ليست بعلبك من مدن الساحل فنستطيع أن نقول إن أهميتها راجعة إلى ما كان يجنيه أهلها من أرباح التجارة ، وهى ليست أيضا على الطريق الرئيسى للتجارة بين الساحل وداخلية البلاد ، بل تبعد عنه بعض الشىء لأنها فى البقاع ولا تربطها بالمدن الأخرى إلا طرق ثانوية ولكن أهميتها كانت فى مكانتها الدينية لأنها كانت منذ العصور الفينيقية المبكرة مركزا هاما لعبادة الإله الفينيقى « هدد » وشريكته عشتر وابنهما ، وقد ساعدها على الاحتفاظ بمكانتها وجود نبع ماء على مقربة من مكان المعبد ليمده ويمد زواره وكهنته والمدينة التى نشأت حوله بماء الشرب وما يلزم لرى الحدائق والحقول .

ولم يكن لمعبد بعلبك فى العصور المبكرة أهمية كبرى ، ولم تبدأ تلك المدينة فى تبوأ مركز ممتاز إلا فى العصر الهلنستى بعد أن فتح الاسكندر الاكبر بلاد الشرق فى القرن الرابع قبل الميلاد ودخلت عبادة الآلهة اليونانية لبنان وغيره فوحدوا بين الإله هدد وبين إله الشمس فأصبح اسمها مدينة الشمس (هليوپوليس) . وفى القرن الأول قبل الميلاد عند ما غزا الرومان

تلك البلاد جعلوا هذه المدينة مقر عبادة إله الشمس چوپتر . وحلت شريكته ڤينوس مكان الإلهة القديمة عشتر ، وازدادت أهمية المكان مع مرور الأيام فرأى أباطرة الرومان أن يبنوا فى هذا المكان معبدا كبيرا لائقا بعظمة إلههم چوبتر وشريكته ڤينوس (الزهرة) . وأكثر المعابد القائمة الآن يرجع تاريخها إلى العصر الرومانى واستغرق تشييدها نحو سبعين عاما منذ منتصف القرن الثانى بعد ميلاد المسيح حتى أوائل القرن الثالث ، وهى من أعظم ما شيد فى ذلك العصر فى بلاد الشرق كله . ولم تطل الأيام حتى بدأ الدين المسيحى يأخذ مكانته وبدأ اضطهاد الوثنيه والوثنيين ، فهدم بعض أباطرة الرومان المسيحيين أجزاء كثيرة من المعابد ، وأغلقوا البعض الآخر ثم حولوا جزءا منها إلى كنيسة . وما هى إلا دورة أخرى من دورات الزمن حتى حاصرتها جيوش المسلمين فى عام ٦٣٤ ميلادية تحت إمرة أبو عبيدة بن الجراح فأصبحت بين عشية وضحاها إحدى المدن العربية الإسلامية .

ولم تكن الاضطهادات المسيحية للوثنيين ومعابدهم هى كل السبب فى تخريب جزء كبير من معابد بعلبك بل كان أيضا للعصر الإسلامى نصيبه الكبير فى ذلك كما كان للزلازل الكثيرة أثر سىء على سلامة المبانى فتهدم الكثير منها .

وأهم المبانى القائمة الآن معبدان أحدهما معبد چوبتر اله الشمس والثانى معبد باخوس .

ويصل الزائر إلى معبد چوپتر بعد أن يصعد درجا فخما عرضه خمسون مترا فى ناحية الشرق يؤدى إلى رواق محمول على أعمدة ما زال اثنى عشر منها قائمة فى مكانها ، وكان هناك ثلاثة أبواب تؤدى إلى فناء سداسى الشكل سدها العرب ولكن الأوسط منها مفتوح الآن ليصل زائر المعبد إلى باقى أجزائه.

ومن هذا البهو السداسى الشكل الغنى بزخارفه وفخامة عمارته يصل الزائر إلى بهو المعبد حيث يرى فى وسطه المذبح وعلى كل من جانبيه حوض كبير

للمياه ، وقد أقيمت على جوانبه المحاريب والتماثيل ، وقام فى جهاتها الثلاثة أروقة محمولة على أعمدة كانت مسقوفة فى الماضى ليستظل ويحتمى بها زوار المعبد الذين كانوا يأتون إلى هذا المكان لتقديم قرابينهم للإله ، وكان بعض تلك الأعمدة من الجرانيت الذى أحضروه من مصر ومازال أحدها باقيا ويقرب إرتفاعه من عشرة أمتار .

وفى الجهة الغربية من هذا البهو يبدأ الجزء الرئيسى من معبد چوپتر ، وقد أقيم على جزء مرتفع عن أرضية باقى المعابد بثمانية أمتار وعن مستوى الأراضى الزراعية بأربعة عشر متراً . ولم يكن فى هذا الجزء إلاحجرة الهيكل المقدس الذى كان فيه تمثال الإله وتحيط به الأعمدة الفخمة العظيمة من جميع الجهات . كان عدد تلك الأعمدة أربعة وخمسين عمودا لم يبق منه فى مكانه إلا تلك الأعمدة الستة التى أصبحت صورتها رمزا لبعلبك بل رمزا للبنان . وارتفاع كل عمود منها نحو عشرين مترا تقف شامخة مزهوة بزخارفها الجميلة المنحوتة فى الحجر سواء فى تيجانها الكورنثية أو فى العتب الحجرى الكبير فوقها حيث نرى فى نقوشها زخارفا ذات أشكال متعددة من الزهور وأوراق الشجر وبعض ثمار النبات وتبرز منها رؤوس الأسود ، وقد بلغ الفنانون القمة فى تلك الزخارف سواء فى حسن تكوينها أو فى دقة نحتها .

وقبل أن نترك معبد چوپتر لزيارة معبد باخوس يجب أن نذكر أن الكنيسة المسيحية كانت مقامة أمام مدرج المعبد وأنها شيدت من حجارة الدرج والمذبح الكبير الذى كان مقاما فى ذلك المكان ، ولكن لم يبق منها ومن ذلك المذبح ، إلا بقايا قليلة .

وعلى مسافة قليلة من الجهة الجنوبية نزور معبد باخوس الشهير الذى كانت تقام فيه طقوس سرية تتناسب مع طبيعة هذا الإله ، وما كان يتصل بعبادته من إسراف فى الشراب واللهو ، وبالرغم من أنه أقل فى حجمه من معبد چوپتر إلا أنه مازال محتفظا برونقه القديم وبالكثير من زخارفه ولم ينله تخريب كبير .

كان هذا المعبد مستقلا عن معبد چوپتر وكان له دون شك فناؤه الخارجى المستقل ولكن لم يبق منه إلا المعبد الرئيسى الذى يدخل إليه الزائر من جهة الشرق . وفى أعلى السلم نجد رواقا مقاما على أعمدة ، وهى تكاد تماثل الأعمدة الستة فى المعبد الآخر فى ارتفاعها ولا تقل عنها إلا اليسير . فإذا ما وصلنا إلى المدخل الفخم الكبير للهيكل نراه مزينا بزخارف متقنة نرى فيها سنابل القمح ونبات الخشخاش والعنب . وعلى مقربة منها بقايا مناظر من الأساطير اليونانية قد محى أكثرها أو تهشم ، ولكننا نعرف من بقاياها صور بعض الآلهة الرومانية المعروفة التى كان يحتفل بها الرومان فى أعيادهم المليئة بالسرور ، والتى كانوا يسرفون فى تكريمها فى بعض الأعياد الخاصة التى يطلقون فيها لغرائزهم الجنسية العنان . وفى داخل ذلك الهيكل نرى الأعمدة والجدران المزخرفة وقد قام فى آخرها مكان مرتفع قليلا كانت تحيط به الأعمدة وفى وسطه كان يقوم تمثال الإله .

فإذا ما انتهينا من زيارة المعبدين ، نجتاز نفقا طوله نحو ١٢٠ مترا ، كانت فيه حجرات عليها قباب تستخدم كمخازن للمعبد ، وخير ما فيها تلك الغرفة التى فى البهو الجنوبى والتى ننزل إليها بسلم فنرى سقفها وجدرانها الحجرية مزينة برسوم جميلة ، وربما كانت تلك الحجرة مخصصة لبعض كبار الكهنة أو كانت مكانا سريا للقيام ببعض الطقوس الخاصة . وبعد زيارة الأقبية يصعد الزائر إلى أعلى السور حيث يسعد برؤية المنظر الجميل لمنازل بعلبك وحدائقها ومنظر عام للبقاع ويرى أجزاء المعابد التى زارها وبقايا الآثار الأخرى المحيطة بها .

وعلى مسافة ٢٠٠ مترا تقريبا من السور توجد بقايا معبد صغير للإلهة ڤينوس كان عند تشييده درة من درر الفن ، وكان أمام مدخله صفان من الأعمدة تقوم بينها التماثيل المختلفة . أما جدران حجرة الهيكل فكانت مغطاة

أيضا بالزخارف ، وقد حول هذا المعبد فى العصر المسيحى إلى كنيسة باسم القديسة بربارة .

ولا تتم زيارة بعلبك إلا إذا ألقينا نظرة عابرة على المكان المعروف باسم رأس العين حيث نرى النبع الجميل الذى يروى الحدائق والحقول منذ أقدم العصور وهو على بعد كيلو متر واحد من الجنوب الشرقى للمدينة . ويجدر بنا أيضا أن نزور المحاجر التى قطعت منها أحجار المعبد وهى عند مكان يسمى الشيخ عبد الله ، ونرى هناك حجرا كبيرا قطع من مكانه ولكنه لم يستخدم فى بناء دعامة أرضية المعبد . ويبلغ وزن هذا الكتلة نحو ألفى طن بينما نرى ثلاثة أحجار فى بناء أساسات المعبد الكبير لا يقل وزن أحدها عن ٧٥٠ طنا .

ولم تنته الحفائر حول بعلبك . فسرحها مازال تحت المنازل على مقربة من الفندق المعروف باسم فندق پالميرا ، حيث كشف البحث عن بعض أحجار مزخرفة من جدار المسرح على عمق نحو مترين ، ونرجو أن يأتى اليوم الذى تتم فيه إزالة تلك المنازل حتى تظهر آثاره للوجود لأن المجسات التى تمت أثبتت أن نقوش جدرانه ما زالت على حالة جيدة جدا بل ما زال بعضها محتفظا بألوانه .

ومهما أطنب الإنسان فى وصف معابد بعلبك فأنه لاشك مقصر فى إيفائها حقها يتجول زائرها بين بقايا المعابد فلا تكاد تستقر عينه على مكان ، فهو إن ارتفع ببصره إلى أعمدتها الشاهقة معجبا بعظمتها لا يلبث أن تقع عينه على نقش جميل أو زخرفة تجعله ينسى الضخامة وأثرها فى النفس ، وهى وإن أقيمت فى العصر الرومانى وغلبت عليها أساطير الرومان فأن فيها الكثير من أثر الفنون المحلية ، وأقيمت دون شك بقوة سواعد أهل لبنان وعبقرية أبنائه القدماء .

١١

آثار الأردنْ

***

تمتاز بلاد الأردن بموقعها الفريد فى قلب العالم العربى، وعلى دروبها سارت القوافل وهجرات الشعوب منذ أقدم الأزمنة ، وتحكمت بعض مدنها فى تجارة هذا الجزء من العالم لفترات طويلة فلا عجب إذا رأينا فيها بقايا حضارات من عصور مختلفة بدأت منذ العصر الحجرى القديم حتى العصر العربى .

ففى كثير من مناطقها الصحراوية عثر الباحثون على كثير من آلات الظران مما دعا إلى الظن بأن هذه المناطق كانت فى العصور القديمة أكثر أمطاراً ، وكانت فى صحاريها المياه الكافية لحياة مستقرة .

وقد لعبت هذه البلاد أيضاً دوراً غير قليل أثناء التوسع المصرى فى الألف الثانى قبل الميلاد ووردت أسماء بعض بلادها فى النصوص المصرية إذ ذاك . واشتهرت الأردن بصلتها بحوادث العهد القديم ، فعلى الضفة الشرقية من الأردن تقع بلاد جلعاد ومواب وأدوم وغيرها من البلاد التى تكرر ذكرها فى التوراة ، وفيها كثير من الأماكن المقدسة التى يتردد ذكرها على ألسنة الآلاف من قراء التوراة كل يوم .

لعبت الأردن دائماً دوراً هاماً فى تاريخ شعوب هذه المنطقة ولنترك الآن ما مر عليها أيام داود النبي وما قامت به فى أيام ازدهار دولة الأشوريين ، وما كانت عليه أيام دولة الفرس ولنقف قليلا لنتحدث عنها عندما بدأ النبط يظهرون على مسرح التاريخ بعد أن قوى نفوذهم وأصبحت بعض طرق القوافل التجارية الهامة فى أيديهم .

فمنذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد أى منذ أكثر من ٢٦٠٠ سنة جاء ذكر النبط بين أبناء الأمم الذين كانوا يدفعون الضريبة إلى مملكة أشور، ولكن شأن النبط ارتفع بعد ذلك وأصبحوا مستقلين، بل أنهم كونوا دولة ذات شأن كانت لها السلطة التامة على جميع بلاد شرقى الأردن ووقفوا فى وجه السلوقيين وهزموهم شر هزيمة، وكان ذلك فى عام ٣١٢ قبل الميلاد. وظل النبط بعد ذلك التاريخ ٢٥٠ سنة وهم فى عنفوان قوتهم وكانت عاصمتهم مدينة بطرا، إلى أن حل عام ٦٣ قبل الميلاد فأخذت روما تتدخل فى شئونهم وأصبح لها بعض النفوذ عليهم ولكن ظل لهم استقلالهم الاسمى ولم يصبحوا تابعين للإمبراطورية الرومانيـــة إلا بعد ذلك بنحو ١٧٠ سنة أى منذ عام ١٠٦ ميلادية.

تقع مملكة النبط بين مصر وسوريا، وكانت تتحكم فى طرق القوافل بين البلدين، وظهر فى بطرا ملوك أقوياء حفظ لنا التاريخ أسماءهم وبعض مظاهر نشاطهم وخلفوا فى كثير من أنحاء الأردن، وبخاصة فى بطرا، آثارهم.

وأدرك الرومان قيمة الأردن وعرفوا أهمية موقعه الاستراتيجى فوجهوا عناية كبيرة إليه وقامت فيه الأبنية الكثيرة وبخاصة فى المدن العشرة التى كونت فيما بينها اتحاداً فى عام ٦٣ ق. م أضافوا إليه فيما بعد مدنا أخرى فى الضفة الشرقية من الأردن، وفى الضفة الغربية أيضاً. وكانت مدن هذا الاتحاد مشيدة على غرار المدن اليونانية ومتأثرة بالثقافة اليونانية ومن أهم هذه المدن مدينة فيلادلفيا وهى عمان الحالية ومدينة جراسا وتسمى الآن جرش ومدينة ديون ومدينة پلا ومكانها الآن خربة الفحل. واتسع نطاق هذا الحلف فشمل مدناً ليست فى الحدود الجغرافية لمملكة الأردن الحالية مثل القنوات فى جبل الدروز ومثل مدينة هيبوس فى سوريا.

ومنذ ظهور المسيحية وجدت لها فى الأردن أرضاً خصبة فانتشرت فى ربوعه بين القرنين الثانى والثالث، فأخذوا يشيدون الكنائس الهامة فى كل

مكان وبخاصة فى عهد الامبراطور جوستنيان ، ونرى الكثير من بقايا هذه الكنائس فى جرش وفى مادبا وفى غيرهما .

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الأردن عصراً جديداً ما زالت فيه حتى اليوم . فنى عام ٦٣٥ انتصرت جيوش المسلمين فى معركة اليرموك وأصبح كل هذا الجزء من العالم منذ ذلك اليوم متأثراً بديانة المسلمين وحضارتهم .

وبالرغم من أن هذه الفصول تقتصر فقط على آثار ما قبل الإسلام إلا أنى أرى من الضرورة أن أشير إلى تلك القصور التى بناها الخلفاء الأمويون على حافة الصحراء انتجاعاً للراحة والصيد وأهمها قصر المشتى وقصر عمرا وقصر الخرانة وقد حوت كثيراً من الزخارف الهامة والرسوم الجميلة التى نقل بعضها إلى المتاحف الأجنبية ، وما زال البعض الآخر فى مكانه . وأرى من الضرورة أيضاً الاشارة إلى تاريخ الأردن أثناء الحروب الصليبية ، فقد كان شرق الأردن أهم أجزاء ما أطلقوا عليه اسم المملكة اللاتينيه فى ذلك العهد وكانت العاصمة فى كرك بين عمان وبطرا .

وأقام الصليبيون حصونا كثيرة ليتمكنوا من الاغارة على قوافل المسلمين ونهبها ، تلك القوافل التى كانت تسير بين مصر والشام أو تخرج فى طريقها إلى مكة وإلى المدينة . وكان أهم تلك الحصون فى كرك ، والشوبك وكان يسمى حصن مونتريال ، ووادى موسى وجزيرة فرعون أمام ميناء العقبة . وهزم المسلمون جيوش الصليبيين وانتهى أمر تلك المغامرة ولكن لم ترجع للأردن أيامه السالفة وظل فى ضعف يسود فيه حكم القبائل البدوية حتى نهض نهضته الأخيرة وأخذ يكتب فصلا جديداً فى تاريخه .

لقد أطلت فى هذه المقدمه التاريخية ولأنتقل الآن إلى ذكر أهم المناطق الأثرية التى يجد فيها زائر الأردن كثيراً مما أبقى عليه الزمن .

ولنترك الآن مدينة بطرا فسنخصص لها الفصل القادم ولنتحدث عن غيرها ، بادئين بمدينة عمان .

فنرى فى عمان بعض بقايا مدينة فيلادلفيا القديمة وبخاصة بقايا المسرح القديم الذى كان يتسع لأربعة آلاف زائر وهو أمام فندق فيلادلفيا وإلى جوار الفندق بقايا مسرح آخر أصغر حجما ، ويليه،إلى الغرب منه، كان سوق المدينة القديمة ومركز الحياة فيها . وإلى الشمال الشرقى من عمان يوجد الحصن القديم وهو معروف الآن باسم القلعة وفى داخله بقايا معبد قديم وإلى جوار الحصن توجد بقايا المبنى المعروف باسم القصر .

ولكن الزائر الذى يريد أن يرى عظمة المسارح القديمة وعظمة المدن الأردنية القديمة يجب عليه زيارة مدينة الجرش حيث يستطيع أن يمشى فى طرقات المدينة ويمتع عقله وناظريه بما فيها ويدرك عظمتها السابقة ، ففيها الأعمدة الشاهقة وفيها الأسواق وفيها المعابد العظيمة وبخاصة معبد الإلهة أرتيمس ، وفيها الكنائس التى بناها المسيحيون فى داخل المعابد الوثنية حينا وبأنقاضها حينا آخر ، وفيها أرضيات من الفسيفساء الدقيقة الصنع . أما مسارحها فهناك المسرح الكبير ويتسع لخمسة آلاف على الأقل والمسرح الصغير ويتسع لألف وخمسمائة زائر .

وفى الأردن مدينة أم جمال التى بنيت منازلها كلها بالأحجار البركانية السوداء ولا يسكنها أحد الآن . وإذا اتجه الزائر جنوبا من عمان يستطيع أن يزور بعض بقايا الكنائس وعلى الأخص فى مادبا حيث يرى خريطة للعالم القديم مصنوعة بالفسيفساء فى أرضية إحدى الكنائس ويرى أيضا فسيفساء المخيط التى تمتاز بجمالها ودقتها ويزور جبل نبو وبقايا المدنية النبطية القديمة وما هو أقدم منها فى ديبان وفى خربة التنور ، وكذلك بعض القلاع القديمة فى كرك والشوبك قبل أن يصل إلى مدينة بطرا .

هذه لمحة خاطفة من تاريخ الأردن وإشارة عابرة إلى أهم آثاره ، وسنتحدث في الفصل القادم عن النبط ونصف آثار بطرا التى تعتبر بحق من أهم المناطق الأثرية ليس فى الشرق العربى فحسب بل فى العالم كله .

١٢

مدينة بطرا

***

فى بقعة موحشة فى جنوبى الأردن وإلى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، وفى منطقة ارتبط اسمها بالكثير من حوادث التاريخ، تقع بطرا عاصمة النبط القـــدماء .

إنها أشبه بمدن الأساطير ، تقوم فى واد منيع على مفترق دروب التجارة، وظلت بعد أن دالت دولتها أكثر من ألف سنة لايكاد العلم يعرف عن مكانها شيئا حتى جاء القرن التاسع عشر فأخذ اسمها يتردد مرة أخرى فى الأسماع ، وأخـذ الناس يفدون إليها لا للاتجار مع أهلهـا أو لمحاربتهم ، فانها أصبحت خاوية على عروشها ولا يقطن أحـد فى بيوتها ، وانما ليروا آثارها ويعجبوا بموقعها ويعيشوا ساعات أو أياما مع ذكريات التاريخ .

منذ ثلاثة آلاف سنة تقريباً أخـــذ قوم من البدو الساميين من شمال الجزيرة العربية يستقرون فى هـذا المكان ويفرضون سلطانهم على القوافل المارة هناك . فقد توافرت فى هذه البقعة المياه اللازمة للشرب وكذلك الموقع المنيع الذى يحمى سكانها من كل مغير عليهم أو طامع فيهم .

ولسنا نريد أن نتوغل فى التاريخ فنذكر الكثير عن أصلهم السامى ولغتهم السامية أو مبدأ ظهورهم وحروبهم مـع بنى اسرائيل أو صلتهم بالأشـوريين ولـكن يكفنا أن نشير إلى الوقت الذى قويت فيه شوكتهم وفرضوا سلطانهم الكامل على طريق القوافل وكانوا قوة متماسكة عمل لهـا خلفاء الاسكندر الأكبر حساباً فسيروا إليهم جيشاً كان نصيبه الفشل والهزيمة . كان ذلك حوالى عام ٣١٢ ق . م أى قبل ما يقرب من ٢٢٧٠ عاما ، وظلوا منـذ ذلك

العهد حتى عام ٦٣ ق . م مستقلين ببلادهم ، ولكن منذ عام ٦٣ ق . م حتى عام ١٠٦ ميلادية كانوا خاضعين اسمياً لنفوذ روما . وفى هاتين الفترتين بنى النبطيون أكثر آثارهم وإلى هذه الأربعمائة سنة يعود تاريخ تشييد أكثر ما بقى إلى الآن من مبانى بطرا . ولم يقض على نفوذ النبطيين ويقلل من أهمية بطرا إلا إدماج بلدهم فى الولاية التى أنشأها الرومان وأطلقوا عليها اسم الولاية العربية فى تلك الأيام وارتفاع شأن مراكز تجارية جديدة واتجاه سير القوافل بين العراق وشاطىء البحر الأبيض إلى شمال سوريا ، ونقل الكثير من تجارة الشرق فى البحر الأحمر بعد أن عرف الرومان سر الملاحة فيه بعد أن ظل أمرها سراً بين ملاحى العرب آلافا من السنين .

كنت أستعيد هذه الحوادث فى ذاكرتى وأنا أتقدم من عين موسى راكبا دابة هزيلة يطلقون عليها فى تلك المنطقة اسم حصان ولكن ليس لها من صفاته إلا شبه ضئيل . تذكرت ما قاله كتاب الرومان وأنا أمر فى الطريق المعروف باسم السيق حيث يكاد جانبا الجبل ينعقدان فوق الرأس ولا يكاد الانسان يرى من السماء إلا خيطاً دقيقاً . هنا يستطيع السكان حقا أن يوقفوا المغيرين لأنه لا منفذ للمدينة إلا من هذا الطريق الضيق بين الجبال ، فكم من جنود مشوا فيه وكم من دواب محملة بالتجارة سارت صامتة فى هذا الدرب الضيق الطويل الذى لا يستطيع الانسان لروعته أن يتكلم إلا همساً . ان وحشة الطريق تتزايد كلما تقدمنا فيه ولكن يخفف من هذه الوحشة شجيرات الدفل المنتشرة فى كل مكان بأزهارها الحمراء الجميلة ووجود بقايا مجرى الماء على الجانب الأيسر من الجبل .

يسير السيق متعرجاً وينفرج فجأة فنرى أمامنا بناء من أجمل ما فى مدينة بطرا وهى المقبرة المعروفة باسم « خزنة فرعون » المكونة من طابقين مزخرفين ومنحوتة فى الجبل ذى الصخر الوردى اللون ، وفى زخارف واجهتها نرى كثيراً من طابع الفن الرومانى ، فهناك الأعمدة الكورنثية

بنسبها الجميلة وبعض رسوم الجياد والحيوانات الخرافية ذات الأجنحة . وفى الجزء الأوسط من واجهة المقبرة فوق الباب نرى رسما للإلهة المصرية إيزيس التى انتشرت عبادتها فى كل البلاد المحيطة بالبحر الأبيض فى ذلك العهد .

وتتركز زخارف خزنة فرعون – شأنها فى ذلك شأن الغالبية العظمى من المقابر – فى واجهتها أما داخل المقبرة فقد خلت جدرانها من الزخارف، ولسنا نجد فيها إلا آبار الدفن أو الكوات الجانبية المعدة لوضع توابيت الموتى .

وانعرج الطريق نحو اليمين ، واخترقنا بقايا المدينة القديمة وقد أخذت الشمس تميل نحو الغروب وكنا نرى حولنا أبواب المقابر المنحوتة فى الصخر إلى أن وصلنا إلى مكان المبيت فى فندق من خيام منصوبة فى الوادى نفسه .

قضينا يومين آخرين فى زيارة بطرا فعلى مقربة من الخيام توجد بقايا المعبد المعروف باسم قصر فرعون وهو من القرن الأول الميلادى ، وعلى مسافة قريبة بقايا قوس النصر ذى المداخل الثلاثة الذى كان يؤدى إلى المبانى العامة فى مدينة بطرا القديمة ، وكان يحيط بها سور يضم السوق والحمامات العامة ومكاتب الحكومة وحومة الرياضيين وغيرها . اننا لانرى منها الآن غير أحجار متهدمة ، وقد خيم السكون على ربوعها ، ولكننا نعرف تماما انها كانت عامرة ، وكانت هذه السوق المهجورة تعج بالتجار يعرضون سلعهم من جميع أرجاء العالم القديم أتوا بها من مصر أو من سوريا أو من العراق ، وجاؤا بها أيضاً من وراء ذلك من بلاد الرومان والإغريق أو من الهند والصين .

كانت القوافل تسير جيئة وذهابا تحمل كل ما تجده فى السوق لتجنى الربح الوفير وكان لا بد لها من المرور فى بطرا ، وكان لا بد لها أيضاً من إقامة سوق هناك .

جلست فى مكان مرتفع أسرح الطرف فيما حولى ، ووددت لو أمكننى اختراق حجاب الزمن ومعرفة كل ما كان يعرض فى هذا السوق واللغات الكثيرة التى كان يتحدث بها من فيه ، ولكن دعنا من الخيال والتمنيات ولنتحدث قليلا عن باقى الآثار .

ما هذا العمود القائم إلى الجنوب من السوق ؟ انه هو الآخر متصل باسم فرعون ، وربما كان من بقايا قصر فى ذلك المكان . رعى الله فرعون فان اسمه يتردد فى كل بلاد الشرق. إن ذكراه لم ترتبط فقط بهذا العمود بل لقد صادفناه فى بطرا فى قصر فرعون وفى خزنة فرعون ، ولكن أى فرعون هو من الفراعين ؟ لايدرى أحد ذلك ، وأغلب الظن أنه لايدريه أيضاً أول شخص أطلق الاسم فهو رمز لا أكثر ولا أقل عن إعجاب الناس بحضارة المصريين القدماء ونسبة كل ما هو عظيم أو معجز إليهم .

ولنسر قليلا لنزور بقايا المسرح ، ولندخل المقابر واحدة بعد أخرى ، ان عشرات منها تستحق الزيارة ولا يلبث الزائر أن يميز بين القديمة ذات الطابع النبطى وزخارفه المثلثة والتى تحتوى أيضاً على تأثيرات من الفن المصرى ، وبين المقابر الأحدث منها التى بنيت فى العصر البيزنطى ، إذ أن منها ما يرجع تاريخه إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

ولن تكون زيارة بطرا كاملة إلا إذا صعد الزائر إلى الأثر المعروف باسم الدير حيث يمتع نفسه برؤية زخارف واجهته التى لاتفوقها فى غناها إلا خزنة فرعون ، ومن هذا المرتفع نفسه وقفت طويلا أمتع الطرف بالنظر إلى وادى عربه وجبل هارون ، وأخذت ذكريات التاريخ قديمها وحديثها تمر مسرعة أمام عينى ، ولكن مالنا ولحوادث التاريخ الآن ولنقتصر على بطرا ووديانها وآثارها .

لقد زرنا المقابر وبقايا المدينة وبعض المعابد والقصور ، وصعدنا إلى الدير ورأينا جبل هارون ووادى عربه ولكن هناك أشياء هامة أخرى وإن

شق الوصول إليها على من يتعبهم تسلق الجبال . فهناك طريق صاعد يوصلنا إلى أعلى الجبل حيث يوجد « المذبح » الذى كان ذا قداسة خاصة لأهل بطرا ، هناك نرى مسلتين قطعتا من صخر الجبل يزيد ارتفاع كل منهما عن ستة أمتار وفى الناحية الأخرى مكان مستوى لايزيد عن ١٤ متراً فى طوله و ٧ أمتار فى عرضه ولا يزينه غير مذبح فى الجهة الغربية منه . هناك فى أعلى مكان ، وتحت أشعة الشمس لايحجبهم شىء ، كان كهنة بطرا يقدمون صلواتهم وقرابينهم إلى إله السموات يطلبون منه نعمته وبركته وحمايته . ونحن إذ ننزل الدرج من الجهة الأخرى مارين بمقابر غير التى زرناها ونرى صهريج المياه لا نلبث أن نصل إلى الوادى ونقف مرة أخرى تحيط بنا صور الماضى من كل مكان.

جر النسيان ذيله على المدينة وأهلها منذ الفتح العربى ، ولم يعد اسم النبط وبطرا إلا صدى بعيداً فى الأسماع ، ومن الغريب أن مكانها بقى مجهولا للعلماء حتى جاء القرن التاسع عشر . فى عام ١٨٢٢ بالذات زارها أحد الرحالة الأجانب بحيلة من الحيل عندما كان مع القافلة الخارجة من دمشق فى طريقها إلى الحج وأدرك أن تلك الآثار التى عند عين موسى وعلى مقربة من جبل هارون تنطبق على ما ذكره كتاب الرمان عن مدينة بطرا .

وتركنا بطرا فى اليوم الثالث ، وتركنا هناك فوجا من الزوار الأجانب جاءوها من عمان ، لقد قطعوا ما يقرب من ثلاثمائة كيلو مترا بالسيارة فى المجىء وسيقطعون مثلها فى الإياب ، ولكنهم سعيدون بما رأوه وستبقى بطرا وآثارها حية فى أذهانهم . لن ينسى زائر بطرا ما عاش طريق السيق ووحشته ، ولن ينسى ألوان الجبل التى زادتها أشجار الدفل جمالا فوق جمال ، ولن ينسى المقابر أو بقايا المدينة القديمة ، ستبقى كلها حية فى ذهنه لأنه لا يوجد فى العالم منطقة أثرية أخرى تشبه بطرا فى موقعها أو فى تأثيرها فى النفوس .

١٣

مصر وآثارها

***

عند ملتقى أوروبا وإفريقيا وآسيا،وعند ملتقى البحرين الأبيض والأحمر تقع مصر (الإقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة) يرويها نهر مبارك وهاب وهو نهر النيل .

واجتمع لمصر من موقعها الجغرافى الفريد وخصب أرضها وسهولة رى أراضيها واعتدال مناخها جميع العوامل اللازمة لتطور المدنية فلا عجب إذا وجدنا فيها آثارا لمدنيات وحضارات ترجع إلى آلاف السنين ولا عجب أيضا إذا كنا نرى مصر تلعب دورا هاما فى تاريخ هذه المنطقة التى نعرفها اليوم باسم الشرق الأوسط من حين إلى حين .

لقد صدق من قال إن مصر هبة النيل،فلولا النيل لأصبحت مصر جزءا من الصحراء التى تكتنفها من الشرق ومن الغرب ، ولولا النيل لأصبح واديه الخصب واحدا من عشرات الوديان الجافة فى تلك الصحراء ، ولكن هذا النيل نفسه لا يعطى دون أن يتقاضى الثمن ، فقد فرض بدوره على من يسكنون على شاطئيه واجبات كثيرة حتى يحموا أنفسهم من غضبه إذا ارتفع فيضانه ووجد جسوراً ضعيفة لا تتحمله أو إذا نقصت مياهه عن المعتاد فلم يروى ما اعتاد أن يرويه من أراضى فتتعرض البلاد للمجاعة . وهكذا استمر ذلك الصراع الذى بدأ منذ عاش الانسان فى تلك البقعة من الأرض ولكنه صراع مبارك مفيد ، إذ كان سبباً فى تطور المدنية وتقدمها فى مصر .

لقد وحد النيل بين المدن المختلفة ، وبالرغم من أن هناك وحدتين جغرافيتين إحداهما فى الشمال وهى أقاليم الدلتا وأخرى فى الجنوب وهى أقاليم

الصعيد ، فان مصر لا يمكن أن تعيش إلا متحدة . ونعرف أنه حوالى عام ٣٢٠٠ قبل مولد المسيح كانت مصر متحدة يحكمها ملك واحد وكانت الحضارة قد تقدمت تقدما غير قليل . وعرف المصريون الكتابة وأنشأ هذا الملك ويسمى « مينا » مدينة جديدة عند ملتقى الدلتا بالصعيد فى المكان الذى عرف فيما بعد باسم منف على مقربة من القاهرة ، والتى أصبحت فيما بعد عاصمة للبلاد .

وأخذت حضارة المصريين القدماء فى التقدم ، وما جاءت الأسرة الثالثة أى حوالى عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد حتى أخذ المصريون يبنون الأهرام ولكنها كانت فى ذلك العهد أهراماً مدرجة أى مصاطب فوق بعضها وأول أمثلتها وأهمها هرم سقارة المدرج الذى بناه المهندس إمحوتب للملك زوسر . وما جاءت الأسرة الرابعة حتى أخذ المصريون يبنون الأهرام الحقيقية العظيمة فى دهشور ثم فى الجيزة وسقارة وإلى جانبها المعابد الفسيحة . كما نعرف أيضاً ماشمل البلاد من نهضة كبيرة نرى الشواهد عليها ليس فى الأهرام والمعابد وحسب بل على جدران المقابر التى رسموا عليها صوراً من الحياة العامة ، وكذلك فيما يعثر عليه الأثريون مع الموتى من أمتعتهم الشخصية أو أشياء أخرى .

فعلى جدران المقابر نرى عمال الحقول وهم منهمكون فى عملهم وعلى مقربة منهم الصناع كل منهم يؤدى عمله ، وإلى جانبهم نرى مناظر السوق وتبادل السلع ، وكذلك مناظر الصيد أو حفلات الرقص والغناء ، وبعبارة أخرى نرى سجلا مصوراً لحياة المصريين فى ذلك العهد ونستطيع أن ندرس بسهولة ويسر ملابسهم وحليهم وأدواتهم وأثاثهم المنزلى وأسلحتهم إلى آخر ما هناك .

وفى أواخر الدولة القديمة ، ضعفت السلطة المركزية ، وقوى حكام الأقاليم وتفرقت الكلمة ، وزاد الطين بلة وفود جماعات من بدو الصحراء

فقامت فى البلاد فى آخر أيام الأسرة السادسة ثورة اجتماعية عاتية ضـــد الأغنياء والحكام وانتقم الشعب من ظالميه، وأصبحت البلاد فى فوضى وادعى الملك بعض حكام الأقاليم ، وأخذوا يتنازعون فيما بينهم ، إلى أن هيأ الله لمصر أسرة من طيبة تمكنت من توحيد البلاد مرة ثانية وبدأت مصر الدولة الوسطى فى تاريخها وكان ذلك قبيل عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

نهضت مصر من كبوتها وعادت للبلاد نهضتها ، وأخذت تتصل بآسيا وجزر البحر الأبيض ودفعت بحدودها جنوبا إلى قلب السودان ، وعنى حكامهم بمياه النيل وكانوا يسجلون ارتفاعاته كل عام ، وقاموا بمشروعات للرى والاستفادة من مياهه واستصلاح بعض أراضى الفيوم ، ولكن لأمر من الأمور انهار الصرح سريعا وتعرضت مصر مرة أخرى لفترة ضعف وتدهور وتمكن قوم يسمون الهكسوس من الدخول إلى البلاد أثناء ذلك العصر الملىء بالفوضى وساموا المصريين الخسف والظلم وظلوا كذلك أكثر من مائة سنة .

لقد حكم الهكسوس أرض مصر ولكنهم لم يستطيعوا فى يوم من الأيام أن يقضوا على الروح الوطنية فيها ، بل كانت هذه الروح تقوى مع الأيام إلى أن جاء اليوم الذى بدأ فيه الصراع بين أمراء طيبة وملوك الهكسوس . بدأ نزاع الهكسوس مع «سقننرع» الذى جاد بروحه فى الميدان . وتلقف علم الجهاد بعده ابنه « كامس » ثم ابنه الآخر « أحمس » الذى تم له طرد العدو من البلاد والاستيلاء على عاصمته فى شرق الدلتا وتقهقر الهكسوس منهزمين إلى فلسطين وتحصنوا فى إحدى مدنها .

وأدرك أحمس أنه لا طمأنينة لمصر طالما كان لها عدو قريب من الحدود، فخرج وراءهم بجيوشه وحاصرهم ثلاث سنوات وقضى عليهم قضاء تاما فاختفت دولتهم من صفحات الوجود ولم يبق منهم إلا اسمهم يتردد فى تاريخ

مصر القومى ويلعنهم المصريون اليوم كما لعنهم أجدادهم منذ أكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة .

ترك الفلاحون المصريون حقولهم وخرجوا وراء زعمائهم مقسمين على النصر أو الموت فبروا بقسمهم ، وفعلوا أكثر من ذلك فانهم لم يعودوا إلى وطنهم إلا بعد أن وضعوا الحجر الأول فى صرح الإمبراطورية المصرية التى ظلت عدة قرون .

لم تنس مصر ذلك الدرس القاسى الذى تعلمته على أيدى الهكسوس عند ما هاجموها من الشرق فأرادوا أن يبعدوا الخطر عن حدود مصر الشرقية قدر ما استطاعوا فدفعوا بهذا الحد بعيدا عنهم ، ودانت لهم كل بلاد آسيا الغربية وأصبحت لهم السيطرة على جزر البحر الأبيض وشقوا طريقهم فى قلب إفريقيا ، وأخذت خيرات تلك البلاد كلها تتدفق على مصر وعلى طيبة بالذات عاصمة البلاد فى ذلك العهد .

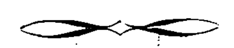
تكدست الأموال فى خزائن الفراعنة فأخذوا يبنون المعابد لآلهتهم وبخاصة للإله أمون سيد طيبة الذى ثبت أقدامهم فى الحروب فأقاموا له المعابد العظيمة التى قل أن بنى مثلها فى العالم القديم ، وأقام كبار الموظفين وأعيان البلاد مقابر لهم زينوا جدرانها بمناظر الحياة ولم تقتصر هذه المناظر على أمور الدين أو مناظر الحياة المصرية فحسب بل كثيرا ما نرى فيها مناظر وفود الأمم الأخرى ، وقد أتت تحمل جزيتها أو هداياها لفرعون . نجد عشرات من أمثال تلك المناظر فى مقابر بعض موظفى البلاط أو الخزانة الذين كان من واجبهم الاتصال بهؤلاء الزوار الأجانب أو تسجيل ما أتوا به من بلادهم .

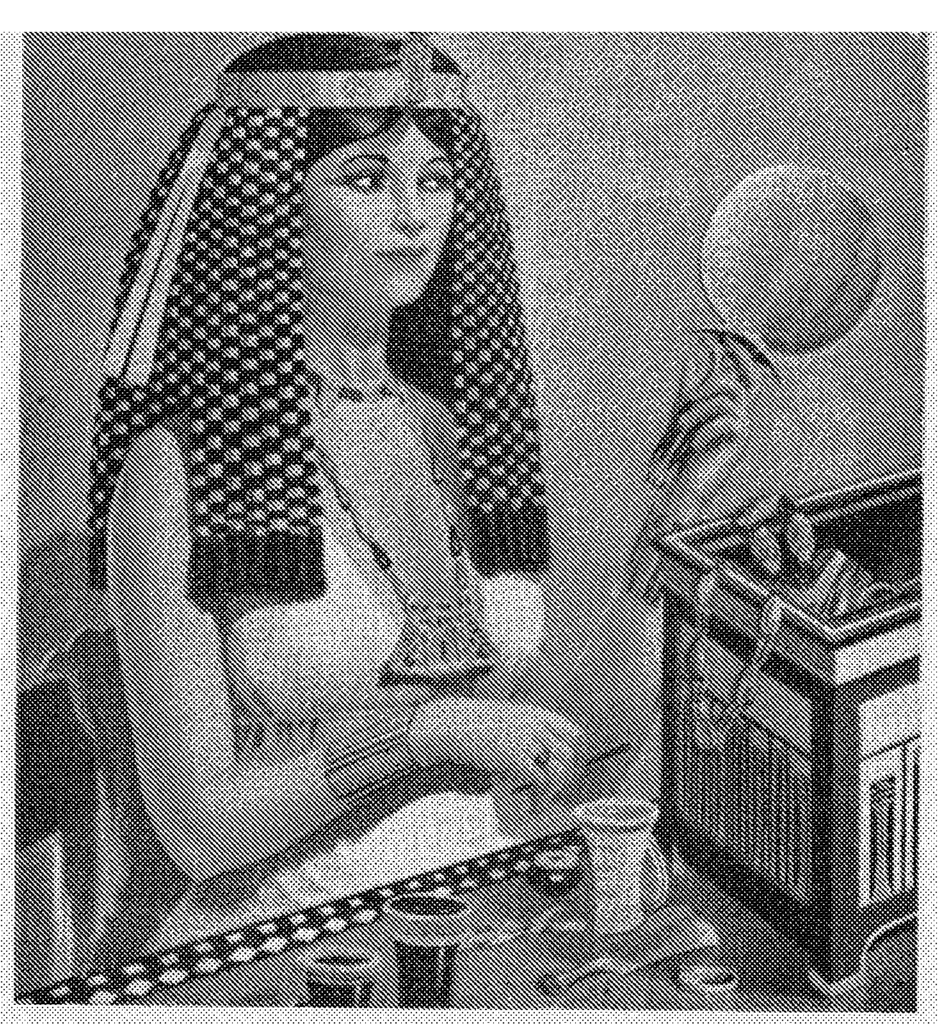
وكما نرى كثيرا من الأهرام ومقابر الدولة القديمة ومعابدها على مقربة من منف أى على مقربة من الجيزة وسقارة فان الكثرة العظمى من آثار

عصر الإمبراطورية نجده فى الأقصر حيث تقوم معابد الأقصر والكرنك على الضفة الشرقية من النيل ومعابد القرنة والدير البحرى والرمسيوم ومدينة هابو والمئات من مقابر الملوك والملكات والأفراد فى الناحية الغربية من النهر. ولكن هذه القوة لم تدم إلى الأبد ولم يلبث بعض الملوك أن اطمأنوا إلى الثروة والترف ولم يهتموا بالحرب، وظهر أيضا من أراد إحداث إصلاحات فى الدين والفن مثل الملك اخناتون الشهير ، وبقيت الإمبراطورية ما بقيت ولكن جاء اليوم الذى أخذت مصر تضعف فيه وظهرت قوى أخرى فى العالم ، بل ووصل الأمر إلى أن غزت بعض الشعوب الأجنبية أرض مصر ، ولكن ما من مرة كانت تكبو فيها مصر وتجثو على ركبتيها حتى تنهض مرة أخرى ، وظلت روحها الوطنية حية لا تموت حتى اليوم .

كان للمدنية المصرية فضل كبير على العالم ، ومن معين حضارتها نهلت شعوب كثيرة فى آسيا وأوربا وإفريقيا. وكان الفينيقيون يحملون حضارتها إلى أرجاء بعيدة ، وشهد اليونان بأنهم تعلموا الكثير من مصر وكان لها فضل مباشر عليهم .

إن الآثار المصرية ما زالت باقية حتى اليوم تروى لنا قصص أولئك الذين عاشوا فى تلك البلاد ، إن النيل الذى روى مصر فى فجر شبابها ما زال يجرى صافيا قويا كريما فى ربوعها حتى اليوم وما زالت الأهرام التى شادها المصريون منذ أكثر من أربعة آلاف وخمسمائه عاما قائمة تشمخ بنفسها بيننا ، تذكرنا بفضل مصر وحضارتها ، وستبقى مصر وستبقى روحها القوميه عالية وثابة ما بقى النيل يجرى فى ربوعها ويمدها بالقوة والحياة .





الأميرة المصرية « سيت — حتحور إيونت » التي عاشت بين عامي ١٨٩٥ — ١٨٤٠ قبل الميلاد ، رسم تخيلي يرينا الأميرة وهي تتزين وقد أمسكت في يدها بالمرآة ، وقد عثر على هذه المجموعة العظيمة من الحلي داخل صندوقها الواضح في الصورة ، في قبرها باللاهون في الفيوم على مقربة من هرم أبيها الملك سنوسرت الثاني

وهذه المجموعة من الحلي موزعة الآن بين متحفي القاهرة والمتروبوليتان بنيويورك ، وهي آية من آيات الدقة في الصناعة وأكثرها من الذهب وبعضها من الإلكتروم (خليط من الذهب والفضة) والفضة ، ومرصعة بأحجار العقيق والفيروز والجمشت (الأماتيست) واللازورد وغير ذلك من أنواع الأحجار نصف الكريمة .

عاشت هذه الأميرة الجميلة في أيام الأسرة الثانية عشرة التي عنيت عناية خاصة بإقليم الفيوم فأقامت فيه مشروعات عظيمة لتنظيم الري واستصلاح الأراضي الزراعة وشيدت فيه كثيرا من المعابد ، وأحبه بعض ملوكهم ففضلوا أن يدفنوا فيه بعد موتهم

١٤



***

كان اليونان يتحدثون دائما عن عجائب الدنيا السبع ومن بينها هرم الجيزة الأكبر ، فإذا تساءلنا الآن عن تلك العجائب نراها قد اختفت جميعا ولم يبق من بينها إلا الهرم وحده فأصبح خليقا بأن نسميه عجيبة العجائب . وما من شخص يذهب إلى منطقة أهرام الجيزة إلا ويقف متسائلا عن تلك الأهرام وعمن بنودا ، وكيف ولماذا بنوها ، ويتلمس الإجابة ممن يراهم حوله أو مما عساه أن يتيسر لديه من أبحاث . وتبتدئ الأسئلة المختلفة تتوالى على ذهنه ، وقلما يطمئن إلى ما يقف عليه من إجابات ، ولكنه سيقف مطأطئ الرأس أمام عظمة ذلك البناء الذى شيدته العبقرية المصرية قبل أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة سنة ، وسنحاول قدر المستطاع الإجابة على بعض تلك الأسئلة فى هذا الفصل القصير .

فنحن نعرف تمام المعرفة أن الهرم تطور عن البناء المستطيل الشكل الذى كان يقام فوق مكان الدفن ، وكان الأفراد والملوك فى الأسرتين الأولى والثانية يدفنون فى مقابر تعلوها مصاطب إلى أن جاءت الأسرة الثالثة وفكر المعمارى إمحوتب حوالى عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد فى أن يميز قبر سيده الملك زوسر عن قبور سائر الناس، فبنى فوق المصطبة الأولى التى بناها لأول مرة بالحجر بدلا من الطوب اللبن ، مصطبة أخرى تقل فى الحجم وهكذا بنى ثالثة ورابعة إلى أن بلغت ستا وأصبحت فى شكلها العام هرما مدرجا وهو المعروف الآن باسم هرم سقارة المدرج ، أقدم بناء حجرى فى العالم . وتحيط بهذا الهرم مجموعة من المبانى من الحجر الجيرى الأبيض من عهد الملك زوسر ما زال الكثير منها قائما يجتذب الزائرين إليه ويستحق عميق إعجابهم . وكان الهرم يستخدم

لدفن الملك ولكن اللصوص سرقوا جثته فى العصور الماضية ولم يبق منها إلا بقايا قليلة ، ولكن الممرات التى تحت المبنى ظلت سليمة وفيها آلاف من أوانى المرمر والديوريت والجرانيت والبرشيا وغيرها من الأحجار ، وقد تم استخراج أكثر من عشرين ألفا منها حتى الآن . وبنيت بعد ذلك أهرام مدرجة أخرى لملوك الأسرة الثالثة إلى أن جاء الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة حوالى عام ٢٦٥٠ قبل الميلاد فكان أول من حاول بناء الهرم الحقيقى كما نعرفه . ونرى أولى تلك المحاولات فى هرمه القبلى فى دهشور ، ونجحت المحاولات فبنى هرمه الآخر المعروف بالهرم البحرى على مقربة من الأول .

كان من نتائج الحفائر التى قمت بها فى السنوات الخمس الأخيرة فى منطقة دهشور العثور على بعض الممرات داخل الهرم الجنوبى وفيها كتل من خشب الأرز الذى أتوا به من جبال لبنان ، أما خارجه فكان كله مغطى بكساء حجرى أملس . وكان يحيط بالهرم من جميع جهاته سور حجرى وفى داخل هذا السور قام معبد صغير فى الناحية الشرقية ومائدة للقرابين داخل حجرة من الطوب أمام المدخل فى الناحية البحرية كما قام هرم صغير الحجم فى الناحية القبلية ، ومن مدخل هذا السور يبدأ طريق يصل بين الهضبة العليا والوادى ، طوله أكثر من سبعمائة مترا ينتهى بمعبد كبير حليت جدرانه الحجرية بالنقوش .

كانت أهرام دهشور هى المدرسة التى اتقن فيها المعماريون المصريون هندسة الهرم الكامل ، ونرى ثمرة تجاربهم فى الهرم الأكبر فى الجيزة ، هرم خوفو بن سنفرو ، الذى كان وما زال أشهر أهرام مصر الباقية حتى الآن والتى يزيد عددها على السبعين هرما .

ليس الهرم إذن إلا جزءا من مجموعة من المبانى نطلق عليها المجموعة الهرمية ، ولم تكن للهرم أى وظيفة غير كونه قبرا لصاحبه توضع جثته

فى إحدى حجراته ويوضع معه أثاثه الجنازى ثم تغلق عليه ، أما ما يقدم إلى روح الملك من قرابين أو صلوات فان مكانها فى المعبدين الملحقين بالهرم أو فى الأجزاء الأخرى .

وكثيراً ما يتردد فى بعض الكتب أو المجلات مقتطفات مما كتبه بعض اليونان أو الرومان أو ما ابتدعه خيال العرب أو كتاب القرون الوسطى ، فيقول بعضهم إن الهرم من بناء الجن أو مما شيده بنو إسرائيل أثناء إقامتهم فى مصر أو بناه يوسف الصديق ليجعل منه مخزنا للغلال ليسد بها مجاعة مصر أو أقامه العمالقة ليحجزوا به الرمال عن النيل ، وهى كلها تخمينات لا نصيب لها من الصحة على الإطلاق . وكثيراً ما يقرأ الناس فى بعض المجلات ما هو أدهى وأمر ، فقد بدأت تظهر منذ أقل من ثمانين سنة بعض جمعيات تخصصت فى تفسير أجزاء الهرم الأكبر بطرقها الخاصة فهم يقولون إن من بنوا الهرم أودعوا فيها كل أسرار الكون وقصوا فيه كل ماسيحدث فى العالم إذ تنبأوا بكل الحوادث منذ أن بنوه حتى تقوم القيامة . وهم يقيسون الطرقات ويقيسون الأحجار وزوايا الأبنية ثم يستخرجون منها بطرقهم الخاصة ما يشاءون سواء عن مولد بعض الأنبياء أو قيام الحروب .

ومن العجيب أن هناك آلافا من الناس فى جميع أرجاء الدنيا وبخاصة فى أوروبا يثقون فى هذه الخرافات التى لا يمكن أن تصمد دقيقة واحدة أمام التمحيص العلمى السليم .

فهرم الجيزة الأكبر بناه الملك خوفو منذ ٤٥٠٠ سنة أى قبل يوسف وقبل موسى ، ونعرف الشىء الكثير عنه بل ونعرف أسماء بعض من أشرفوا على تشييده . ويبلغ ارتفاع هذا الهرم فى الوقت الحالى ١٣٧,٢٥ مترا وكان عند تشييده ١٤٦,٧٠ مترا عند ماكان يغطى جهاته الأربع كساء من الحجر الجيرى الممتاز الذى أتوا به من محاجر طره فى الناحية الشرقية من النيل ، أما طول

كل ضلع من قاعدته الآن فهو ٢٧٧,٥٣ مترا وزاوية ميل أضلاعه ٥١° ٥٠´ واستخدم المصريون فى تشييده نحو ٢,٣٠٠,٠٠٠ من كتل الأحجار تتراوح أوزانها بين طن واحد (١,٠٠٠ كيلو جرام) وثمانية أطنان وفى المتوسط طنان ونصف لكل كتلة ، أما المساحة التى تشغلها قاعدته فهى تقرب من ثلاثة عشر فدانا .

ولم يترك لنا المصريون القدماء أى بيانات عن بناء الهرم أو عدد العمال الذين قاموا بتشييده والسنوات التى استغرقها بناؤه أو الطريقة التى اتبعوها فان مثل هذه الأمور بالنسبة اليهم أشياء لا أهمية لها ولا تستحق التسجيل ، ولكن الكهنة المصريين قالوا لأحد رحالة الاغريق وهو هيرودوت بعد تشييد الهرم بأكثر من ألفين ومائتى سنة ان بناءه استغرق ثلاثين عاما وأنه كان يقوم بالعمل فيه بالتناوب ١٠٠,٠٠٠ عامل يعملون ثلاثة شهور كل سنة.

أما طريقة بنائه فان الغالبية العظمى من رجال الآثار أصبحوا يؤمنون بأن قدماء المصريين لم يعرفوا فى ذلك العهد البكرة أو غيرها من الوسائل الميكانيكية ، وأنهم أقاموا منحدراً كبيراً من إحدى الجهات كان يرتفع ويزداد طوله كلما ارتفع بناء الهرم وفوق هذا المنحدر كانت تسحب ملايين الأحجار اللازمة للبناء أما الجهات الثلاثة الأخرى فكانت تردم أيضا من الخارج ولكن إلى مساحة قليلة تكفى للعمل فقط فى المداميك التى على حافة البناء ، وقد عثر على مثل هذا المنحدر فى هرم مدرج لم يتم بناؤه كشف عنه منذ سنوات قليلة فى سقارة . لم يكن الهرم غير قبر للملك ، أما الملكة أو الملكات وأبناؤها فكانوا يدفنون فى مقابر أخرى .

بنى فراعنة الدولة القديمة مقابرهم على شكل أهرام تقع مداخلها دائما فى منتصف الجهة البحرية ، فلما ضعفت السلطة المركزية وقامت ثورة الشعب الاجتماعية فى آخر أيام الدولة القديمة تعرضت الأهرام لنهب الناهبين

طمعا فيما كان مع أصحابها من حلى ذهبية وغيرها ، وكان هذا التخريب سببا فى أن ملوك الدولة الوسطى بذلوا جهدا كبيرا فى إخفاء مداخل أهرامهم حتى يتعذر على اللصوص معرفة أمكنتها. ولكن هذا الاحتياط الكبير لم يحل دون وصولهم إليها فيما بعد مما جعل فراعنة مصر فى الدولة الحديثة يعدلون عن إقامة الأهرام كقبور لهم وفضلوا أن يدفنوا موتاهم من الملوك فى مقابر منحوتة فى وادى الملوك كانوا يخفونها تماما عن الأنظار .

وإذا كان الفراعنة فى شمال وادى النيل أصبحوا لا يستخدمون الأهرام كقبور لهم منذ الدولة الحديثة فانا نرى الأهرام فيما تلا ذلك من عصور فى جنوبى الوادى منتشرة فى ربوع السودان وبخاصة حول جبل بركل أى عند نبتا ، وحول مروى القديمة ولم تقتصر على الملوك فقط بل كانت تبنى للملكات والأمراء والأميرات من أهلهم .

لقد مضت أربعة آلاف وخمسمائة سنة على تشييد الأهرام وما زال هرم خوفو وهرم ابنه خفرع وحفيده منكاورع شامخة برأسها لم تفعل بها أحداث الزمان إلا القليل الذى لا يتعدى كساءه الخارجى الذى ظل سليما حتى القرن الثالث عشر ثم نزع من مكانه فيما بعد لتبنى به بعض أسوار القاهرة ومبانيها العامة .

يقف زائر الأهرام أمامها معجبا بالرغم مما أصابها ، إنها أحجار صماء خرساء لا تكاد تقص شيئا ، فقد ذهب الكهنة والحراس وخفتت موسيقاهم وتراتيلهم ، ولكن هناك أصواتا أخرى تصل إلى أعماق النفس ، أصوات كثيرة من أصوات التاريخ تتحدث عن عظمة المصريين القدماء فى فنونهم وستظل هذه الأصوات تدوى فى آذان العالم طالما بقى الهرم ، وهو باق إلى ما شاء الله .

١٥



* * *

لمدينة طيبة عاصمة مصر فى عهد الإمبراطورية صفات كثيرة فيحلو لبعض المؤرخين أن يطلقوا عليها الاسم الذى وصفها به «هوميروس» شاعر الإغريق فيقولون طيبة ذات المائة باب ويفضل آخرون أن يسميها بما سماها به الكتاب المقدس فيقولون عنها طيبة مدينة أمون ، ويردف آخرون باسمها كلمات العزة والخلود ولكن مهما وصفناها فإنها طيبة وكفى ، طيبة عاصمة العالم القديم ، طيبة الملأى بأجمل وأعظم الآثار ، طيبة التى امتلأت ساحاتها بالأمس واليوم بعشرات المعابد ومئات المقابر الملونة الجدران ، وارتفعت فيها المسلات والتماثيل شامخة الرأس ، طيبة التى يروى كل شبر فيها قصة من قصص التاريخ .

وإذا أردنا العودة إلى الأزمنة البعيدة فقد كانت عامرة بسكانها فى العصر الحجرى ، كما أصبح ذلك الإقليم منذ الدولة القديمة أى قبل ٤٥٠٠ سنة إقليما قائما بذاته وله حكامه وله آلهته ، وما زالت بعض مقابر ذلك العهد فى البر الغربى . وما جاءت الدولة الوسطى حتى أصبح فى مكانها مدينة فيها معابدها المقامة للإله أمون ، وقام أمراؤها بتوحيد البلاد بعد فترة ضعف وأسسوا الدولة الوسطى .

بنى ملوك الأسرة الحادية عشرة أى قبل أكثر من أربعة آلاف سنة معبداً كبيراً فى الأقصر ، وبنوا معبداً آخر فى الكرنك وأقاموا أهراما فوق مدافن موتاهم بالبر الغربى ، وأقاموا المعابد الجنازية على مقربة منها ، وإن شئنا أن نزور بقايا آثار هؤلاء الملوك فما علينا إلا أن نذهب إلى منطقة الدير البحرى

فى البر الغربى فنرى معبد منتوحوتب ، وعلى مقربة منه قطع المقربون إليه مقابرهم فى الصخر ، كما أن بعض الملوك ومن عاصروهم أقاموا مقابرهم فى شمالى الجبانة فى المنطقة المعروفه الآن باسم نجع الطارف .

وزاد ملوك الأسرة الثانية عشرة فى جمال طيبة وبنوا المعابد المختلفة ، وخير ما بقى من آثارهم هناك هيكل الملك سنوسرت الأول الذى هدمه ملوك الأسرة الثامنة عشرة ووضعوا أحجاره فى الصرح الثالث بالكرنك حيث عثرت عليه مصلحة الآثار فأعادت بناءه .

فلما استولى الهكسوس على مصر خضعت لهم البلاد ولكن بقى لأمراء طيبة الكثير من استقلالهم ، ثم تحرر وادى النيل على أيدى أمراء طيبة وسار ملوك الأسرة الثامنة عشر يفتحون بلاد آسيا وإفريقيا وجزر البحر الأبيض المتوسط فأخذت خيرات العالم تتدفق على العاصمة . وعلى جدران مقابر طيبة فى البر الغربى نرى مناظر الشعوب المختلفة يرتدون ملابسهم الوطنية ويحملون إلى مصر خير ما كانت تصنعه بلادهم ، ولهذا أصبحت هذه المقابر أهم مصدر لدراسة حضارات تلك الشعوب التى عاشت قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ، لأنه لم يكد يبقى فى تلك البلاد نفسها شىء من حضارة ذلك العصر .

واعتقد ملوك الإمبراطورية أن إلههم أمون الذى حماهم فى الحروب وثبت أقدامهم فى المواقع جدير بأن يشاركهم ثمرة انتصارهم فأغدقوا عليه الهبات وأقاموا المعابد العظيمة تقربا إليه ، وزادوا فى جمال العاصمة التى أصبحت أكبر وأهم بلاد الدنيا . وتفتحت أبواب الثروة على الشعب فأثرى الكثيرون وتمكنوا من بناء القصور حول قصور الملوك فاتسعت طيبة وأخذ العالم كله يتحدث عنها وذكرها الشاعر اليونانى «هوميروس» فقال عنها « طيبة ذات المائة باب » إشارة إلى اتساع رقعتها وكثرة الأبواب التى فى أسوارها .

وقبل أن أتحدث عن الحياة فى تلك العاصمة القديمة يجدر بنا أن نقف قليلا لمعرفة معنى بعض الأسماء . فكلمة الأقصر حديثة ، أما اسمها فى الكتب العربية من أيام العصور الوسطى فهو « الأقصرين » وهى ترجمة حرفيه لاسمها فى العصر الرومانى « دوا كاسترون » أى الحصنين إشارة إلى الحصنين اللذين كانا قائمين على يمين ويسار المعبد واللذين ما زالت بقاياهما قائمة إلى الآن . أما طيبة فهى مشتقة من كلمة « تا - أپت » وتا هى أداة التعريف و « أپت » معناها الحريم وهذا هو اسمها فى أيام الفراعنة لأن منزل أمون كان فى الكرنك وليس معبد الأقصر إلا المنزل الخاص الجنوبى الذى كان يذهب إليه أمون ليقضى فيه بعض وقته . أما الكرنك فقد ذكر الكثيرون تفسيرات لها ، ولكن كل تلك التفاسير لاتستند إلى حقيقة تاريخية . فكلمة الكرنك ليست مشتقة من كلمة أخرى قديمة إنما الأرجح أنها اسم لإحدى القبائل البدوية التى نزلت فى مديرية قنا ، ويكفى أن نعلم أنه توجد ثلاث قرى اسم كل منها الكرنك فى مديرية قنا كما ورد اسم عرب الكرنك فى كشف القبائل العربية التى حصرت فى عهد الخديوى سعيد باشا .

أعود الآن إلى وصف المدينة القديمة . كانت المدينة القديمة فى مكانها الحالى تقريبا يتوسطها معبد الأقصر ، وكان هناك طريق على النيل وفيه ميناء كبير لترسو فيه السفن . وكانت إدارات الحكومة على مقربة من المعبد ، أما القصر الملكى فمن المرجح أنه كان واقعا بين معبدى الأقصر والكرنك.

وكانت هناك عدة معابد صغيرة متناثرة بين المعبدين الكبيرين، واتسعت المدينة القديمة حتى شملت المكان الذى تشغله مدينة الأقصر والحقول التى بينها وبين الكرنك كما أننا نعرف أن تعداد سكانها ربما زاد عن المليون فى عهد الدولة الحديثة .

وكان بين معبدى الأقصر والكرنك طريق مرصوف بكتل الأحجار وعلى جانبيه تماثيل للكبش الذى يرمز به للإله أمون وقد وقف تحت ذقنه تمثال الملك .

وقامت على جانبى هذا الطريق منازل كبار الموظفين وكان لكل منها حديقته الخاصة ولم يزد عن طابقين ، أما منازل المدينة القديمة فكان بعضها ذا أربع طبقات .

ولسنا ننتظر من أحداث الزمان أن تبقى على آثار مدينة آهلة مثل طيبة فإن تعرضها للحروب والحرائق وفيضان النيل واستمرار السكن فيها يجعلنا نقطع كل أمل فى العثور على أحد منازلها كاملا . ولكن إذا لم يسعدنا الحظ بالعثور على تلك المساكن فإننا عثرنا على رسمها مدونا على جدران مقابر طيبة فى البر الغربى إذ أن أصحاب المقابر رسموا على جدرانها صورا من حياتهم اليومية . كانت هناك منازل ذات أربع طبقات وكان يشغل الدور الأول منها ، وكان أشبه بيدروم نصفه تحت مستوى الطريق ، المطابخ والحجرات التى يقوم فيها الخدم والأتباع بصنع ما يلزم لسيد المنزل من نسيج وغيره ، أما الدور الثانى فكان معداً لاستقبال الضيوف ويحوى حجرات كثيرة وكانت تقام فيه الحفلات . أما الدور الثالث فكان خاصا بالعائلة والدور الرابع كان فيه جزء مخصص للخدم ينامون فيه أما الجزء الآخر فكان مخازنا خاصة بالمنزل.

أما المنازل ذات الحدائق فكان كل منها مكونا من دورين ، وفى حدائق معظمها بركة صغيرة يلعب فيها الأطفال أثناء الصيف ويجلس على حافتها صاحب المنزل وعائلته ليقضوا بعض الوقت فى السمر ، أو ليشنفوا أسماعهم بالموسيقى التى يعزفها بعض الجوارى . وكانت صالات الاستقبال فى الدور الأول وحجرات النوم فى الدور الثانى ، أما سطح المنزل فكان فى الجزء الأمامى منه أعمدة مسقوفة أقرب إلى نظام حدائق السطح فى العمارة الحديثة .

وكانت الشوارع ملأى بالمتاجر المختلفة ، أما المدارس والمستشفيات فكانت ملحقة بالمعابد . وليس من المعقول أن تنشأ مدينة كبيرة مثل طيبة ويبلغ المصريون مابلغوه من مدنية دون أن تنشأ بينهم أماكن عامة يرتادها محبو اللهو . وها هو مدرس يؤنب تلميذه على ارتياده لتلك الأماكن نقلا عن بردية انسطاسي فى المتحف البريطانى :

« علمت أنك أهملت التعليم وأسلمت نفسك للسرات وأنك تمشى من شارع إلى آخر ساعيا وراء الخراب حيث تنبعث رائحة الجعة التى تنفر منك الناس وتقود روحك إلى التهلكة ، إذ تصبح مثل دفة السفينة المكسورة لا تحرك يميناً أو يساراً » ثم يقول :

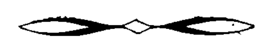
« لقد علموك الغناء على نغمات الناى والمزمار وعلموك مناجاة القيثار والغناء مصطحبا الصنوج . وتجلس فى الحانة وحولك الفتيات وتقوم وتقعد مداعبا لهن . تجلس الغادة أمامك ، ويعطرون ملابسك بالروائح الزكية ويتدلى من عنقك عقد الأزهار وأنت تطبل على بطنك ثم تترنح وترتمى على وجهك وتتمرغ فى الوحل » .

ولكن إلى جانب مساوئ المدنية كانت هناك محاسن أخرى كثيرة ، وبخاصة الحياة الحربية التى بثها ملوك الإمبراطورية فى نفوس المصريين .

ما مشيت يوما فى شارع البحر فى الأقصر وألقيت نظرة على النيل إلا ووثبت إلى ذهنى عشرات الذكريات . فهنا أمام المعبد ما زالت بعض أحجار الميناء باقية فى مكانها . هذه هى الميناء التى أبحر منها الملك « كامس » عندما خرج برجاله ليحارب الهكسوس . ورغم مضى آلاف السنين أكاد أرى الملك الشاب وقد اعتلى عربته الذهبية وسار على رأس جنوده ، وأكاد أرى النساء والفتيات وقد خرجن يودعن أعزاءهن مشجعات وناثرات عليهم الزهور . وأكاد أرى أمامى سفن الملك أحمس وقد غادرت الميناء بين دق الطبول وتهليل الرجال والنساء .

وكم من مرة تخيلت عودة تحوتمس وقد خرجت طيبة بأسرها لملاقاته . فها هى السفن قد أقبلت وفى صدرها سفينة الملك يعلو مقدمتها شعار الإله أمون من الذهب الخالص ، حتى إذا وصلت إلى الميناء وأصبحت فى ظل المعبد بدأ الموكب فى سيره وتقدم فرعون العظيم وفى ركابه آلاف الأسرى ليقدم الشكر لأبيه أمون .

إن تاريخ طيبة نبراس يهتدى به الشباب ويعتز به كل مصرى . فمن طيبة خرجت جيوش الأسرة الحادية عشرة تعيد الوحدة إلى وادى النيل قبل أكثر من ٤٠٠٠ سنة ، ومن طيبة خرجت الجيوش مرة أخرى لطرد الهكسوس بعد ذلك بنحو خمسمائة سنة فانتصرت على أعداء البلاد وتبعتهم إلى فلسطين وقضت عليهم ، ووضعت الحجر الأول فى صرح الإمبراطورية المصرية . إننا نقرأ تاريخ تلك المعارك ونقف طويلا أمام مناظر تلك الشعوب على جدران معابد طيبة وفى مقابرها ، إن زائرها يعيش فى دنيا القدماء أياما أو شهورا كما يشاء فإن آثار طيبة تملأ الوادى على جانبى النيل ، وكل حجر أو جدار فيها ليس إلا سطراً أو صفحة من سجل تاريخ مصر القديم .



١٦

الإسكندر الأكبر فى واحة سيوة

***

حلت ساعة الظهر ، ورغماً من أنه كان يوما من أيام الشتاء فقد كان الجو حاراً خانقاً زاد فى وطأته هذا الغبار الناعم الذى أثارته أرجل مئات الدواب والجنود التى كانت تقطع الصحراء ، يتقدمها شاب وسيم يعتلى صهوة جواد . كان الشاب ومن حوله عابسين ينظر كل إلى صاحبـــه نظرة الحيرة والقلق ولـكنهم لم يتوقفوا عن المسير .

لقد تعرض هـذا الجيش الصغير لأقسى التجارب التى تمر عـلى من يرتاد الصحراء . إنهم الآن فى منتصف الطريق قطعوا أربعـة أيام ومازال أمامهم أربعة أخرى وانتهى ما معهم من ماء أو كاد . وبدأ الجنود يتذمرون طالبين جرعة ماء ، وأخذ القائد يحس بشعور جنوده وارتسمت أمام الجميع صورة مؤلمة بشعة طالما سمعوا عنها عندما ينضب ماء المسافر فى الصحراء فزاد ذلك من ظمأهم .

كان ذلك فى شتاء عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، ولم يكن هـــذا الشاب غير الاسكندر المقدونى ولم تـكن هذه الصحراء غير صحراء مصر الغربية بين مرسى مطروح وواحة سيوة .

نظر الاسكندر إلى حاشيته وسألهم للمرة العاشرة فى ذلك اليوم عن قرب الماء فأجابوه نفس الجواب وأضافوا على ذلك أن الركب لن يستطيع السير أكثر من هذا اليوم وأنهم معرضون لهلاك محقق . وعند ذلك قال الاسكندر « إنى جئت هنا لزيارة «أمون» سيد واحة سيوة وحاميها فاسألوه معى مخلصين أن يحمينا حتى نصل إليه » . قولوا للجنود : «أدعوا أمون فهو الذى يستطيع أن يمـــد يده إلينا » .

لم يكن رجال الاسكندر فى حاجة إلى مثل هـــذا التذكير فإن النفوس تشعر بضعفها وحاجتها إلى حماية الله فى مثل هذه الصحراء حيث يرى الإنسان نفسه صغيراً بالنسبة إليها ، ويشعر بحاجته إلى التأمل فى قدرة الخالق العظيم الذى أبدعه وأبدعها . ومع ذلك ارتفعت أصواتهم جميعاً — المؤمنون به وغير المؤمنون — أن يجد لهم مخرجا . ولكن لم يشغل واحد منهم نفسه بالتفكير فى هذا المخرج وما هو أو كيف يكون .

كانت السماء صافية والشمس ترسل أشعتها الحارة ، ولكن ما هذه السحب ، التى أخذت تتجمع فى الأفق وأخذ الريح يدفعها أمامه حتى غطت وجه السماء ؟ ما بال الريح قد سكن واشتدت حرارة الجو ؟ . بدأت النفوس تنتعش فهذه ظواهر يعرفونها جيداً . واستمع الله لدعائهم وبدأت قطرات المطر تنزل فوق وجوه أخذت تبتسم بعد طول عبوسها ، فارتفعت صيحاتهم كالأطفال وقلبوا وجوههم نحو السماء يتلقفون قطرات المطر فى أفواههم وما لبث القطر أن انقلب إلى غيث ارتووا منه هم ودوابهم ، وملأوا ما معهم من قرب وأوان ، وهكذا أمكن للاسكندر ورجاله أن يصلوا إلى سيوه .

أسس الاسكندر مدينته الجديدة وهى الاسكندرية وأشرف على تخطيطها ، ولكنه عندما كان على شاطىء البحر الأبيض قرر قراره فجأة على زيارة معبد أمون فسار بحذاء الشاطىء حتى مدينة « براتونيوم » عاصمة المنطقة ومكانها الآن مرسى مطروح ، ثم انحدر فى طريق القوافل إلى الواحة وهو الدرب الذى سارت عليه القوافل منذ آلاف السنين وتسير فيه السيارات الآن .

ولكن ما الذى حمل هذا الفاتح على تكبد المشاق وهو فى حاجة إلى البقاء فى مصر للإشراف على مختلف شئون جيشه ، والاستعداد للزحف الجديد الذى كان ينوى القيام به ؟ فهل كانت لسيوة ميزة حربية تحتم استيلاءه عليها ؟

الجواب بالنفى وإنما كانت رحلته لزيارة واحة أمون ولسماع نبوءات كهنته إذ اشتهرت سيوة منذ القرن السادس قبل الميلاد وقبل ذلك أيضاً فى جميع أنحاء بلاد اليونان بأنها مقر وحى ونبوءات الإله أمون الصادقة ولا يجرؤ أحد من الناس على الشك فيها ، وطالما أرسل الملوك والأمراء من جميع أرجاء البلاد اليونانية أو المتأثرة بحضارة اليونان وفودهم إلى هذه الواحة ليسألوا أمون عن بعض ما يحيرهم ويحصلون على إجابته وإرشاداته .

يذكر لنا بعض مؤرخى اليونان أن حاكم إحدى الولايات اشتبك فى حرب مع حاكم آخر وطالت الحرب بينهما فأراد أن يعرف النتيجة فأرسل رسله إلى معبد أمون فلما تقدموا بسؤالهم أجابهم أمون «عودا من حيث أتيتم فان الذى أرسلكم معى الآن » ولم يفهم الرسل شيئا وحاولوا فى اليوم التالى استيضاح ذلك من الكهنة فلم يزد الإله حرفا واحداً على ما قاله . وعاد الرسل من حيث أتوا واثقين من فشلهم فى مهمتهم . فلما وصلوا إلى الشاطىء والتقوا ببعض الآتين من بلادهم علموا بأن سيدهم قد مات فلما سألوا عن يوم موته اتضح لهم أنه كان اليوم السابق لسؤالهم للإله أمون . ولو عرفنا أن مدة السفر بين سيوة وبلاد اليونان لا يمكن قطعها فى أقل من شهر فى ذلك العهد ووضعنا فى أذهاننا أيضاً أنه لم يكن فى العالم فى تلك الأيام وسيلة من وسائل المواصلات الحديثة لوجدنا أنفسنا مضطرين للتساؤل مع القدماء عن كيفية حدوث هذه المعجزة وكيف علم كهنة أمون وهم فى قلب الصحراء بموت شخص فى اليونان غداة وفاته .

وهناك عشرات من أمثال هذه القصة تداولها الرواة ودونها المؤرخون ولهذا احتلت هذه الواحة ومعبدها وإلهها مكانا رفيعا بين بلاد الدنيا وكان سكان العالم القديم يأخذون مايقول به أمون سيد واحة سيوة قضية مسلما بها .

وذكر بعض المؤرخين أن الإسكندر ذهب ليسأل كهنة أمون عن قاتلى أبيه كما قال آخرون غير ذلك ولكن الحقيقة لم يعرفها أحد كما سنرى .

وصل الإسكندر ومن معه إلى سيوة وبعد أن استراح قليلا فى إحدى حدائقها قصد إلى المعبد هو وبعض خاصته . فلما صعدوا إلى السور استقبلهم الكهنة عند الباب استقبالا يليق بأعظم رجال العالم نفوذاً فى أيامه . وتقدم إليه كبير الكهنة وحياه ورحب به وناداه « ابن چوپتر أمون » ونعته بأنه سوف لا يقهره أحد . فلما دخل إلى بهو المعبد وقف ليشاهد ترحيب الإله أمون به . خرجت سفينة أمون يحملها الكهنة على أكتافهم وفى وسطها شيء بيضاوى الشكل مرصع بأحجار الزمرد ، وأحاط بالسفينة ومشى خلفها كاهنات يضربن على الآلات الموسيقية ويرقصن ويغنين والسفينة تدور حتى أعلن رئيس الكهنة أن نفس أمون قد طابت وليتقدم من يشاء بسؤاله . وهنا تقدم أحد القواد وقال : « أيها الإله العظيم . انك حييت مليكنا بقولك أنه ابنك فهل معنى ذلك أنه أصبح إلها وحق علينا عبادته ؟

فتحركت السفينة وقال رئيس الكهنة ان الإله قال نعم وأن الإسكندر تجب عبادته وتقديم القرابين له .

وظل الإسكندر ساكنا وقتاً غير قصير ثم أشار إلى رئيس الكهنة فاقترب منه ، وعند ذلك قال له : أريد أن أسأل أمون فى خلوة .

فأشار رئيس الكهنة إلى رجاله فداروا بالسفينة وعلت مرة أخرى أصوات الموسيقى والغناء ودخلوا إلى حجرة الهيكل حيث وضعوا السفينة فى مكانها ، ودلف الإسكندر مع رئيس الكهنة إلى الهيكل وأغلقوا الباب . وبعد وقت غير قصير خرج إلى أصحابه فلما سألوه عما دار بينه وبين الإله لم يزد على قوله بأنه سمع كل ما كان يرجوه . لم يقل الإسكندر لأصحابه شيئا وانما كتب خطابا إلى أمه يذكر لها فيه أنه سمع من أمون أشياء هامة سيقولها لها عندما يراها ،ولكن هذا اللقاء بين الأم وابنها لم يتم فمات الإسكندر وحمل معه سره إلى القبر . وآمنت الدنيا كلها بما قاله أمون بأنه لن يقهر الإسكندر أحد كما آمن رجاله بأنه ابن أمون وحق على أمون أن يحمى ابنه الذى أصبح مقدراً

له أن يسود الأرض كلها . وظل الاسكندر على وفائه لهذا الإله فكان يبنى باسمه المعابد أينما سار وكلما وجد نفسه فى مركز حرج أرسل إليه يستشيره . فلما حضرته الوفاة فى آسيا ظل يذكره حتى اللحظة الأخيرة وطلب ممن كان إلى جانبه أن يدفنه إلى جوار معبد أبيه فى واحة سيوة لتنعم روحه بقربها من أمون . وأراد رجال الاسكندر تنفيذ وصيته لولا تدخل القائد بطليموس وإصراره على دفنه فى مدينته التى أنشأها وهى الاسكندرية .

أن هذا المعبد الذى وقف فيه الاسكندر ما زال قائماً إلى الآن فى قرية أغورمى ، والحجرة التى دخلها وتحدث فيها إلى الإله وسمع نبوءاته ونصيحته مازالت فى حالة لا بأس بها ، وجدرانها مغطاة بالنقوش تمثل أمون سيد الواحة وخلفه زوجه موت وابنه خونسو وبعض الآلهة الأخرى . وعلى أحد جانبى الهيكل نرى الملك أحمس الثانى الذى عاش قبل الاسكندر بمائتين وثلاثين عاما يقدم القرابين للآلهة وعلى الجانب الآخر نرى حاكم الواحة «سوتخ إردس» .

كان أهالى أغورمى يقطنون المعبد وما حوله إلى عهد قريب وقد تسبب عن ذلك تهدم الكثير من مبانيه وتكسير نقوشه ولكنه غالب الزمن وبقى إلى الآن ولو أنه مازال ينتظر العناية به وتنظيفه مما فيه من أتربة وأحجار وبقايا المنازل ، وشتان بين أمس واليوم .

جلست بين هذه الخرائب أقارن بين المعبد القديم كما وصفه زواره والمعبد فى حالته الراهنة . وأطلت التفكير فى وصف القدماء وسبح بى الخيال فى الماضى فأخذت الجدران المتداعية تختفى من أمامى وحلت محلها أشباح ترتدى الملابس البيضاء . انهم كهنة أمون وكاهناته . . . ولكن أين الموسيقى وأين غناء العذارى وأين صوت «أمون» يحدثنى عما سيأتى به الغد وما أكثر ما فى النفس من أسئلة أتمنى أن أعرف عنها الجواب .

وأفقت من تأملاتى على صـوت قوى صادر من مئذنة جامع أغورمى . أنه المؤذن يدعو إلى صلاة العصر . نعم . . . الله أكبر وأشهد ألا إله إلا الله.

لقد دالت دولة أمون وسكتت نبوءاته إلى الأبد . وزاد مجد الاسكندر حتى أذل الشعوب ولـكن تحطمت أطماعه عنـد موته . وأصبح كل منهما قصة من قصص التاريخ ، وسبحـان من له الدوام ، سبحان من يرث الأرض ومن عليها .



١٧

شمال افریقیا

* * *

فى منتصف القرن السابع الميلادى كانت الجيوش العربية من جنود المسلمين تتقدم فى شمال إفريقيا تحارب جيوش الرومان وكل من وقف فى وجههم من أبناء البلاد حتى أخضعتها ، ثم استقرت فيها . ولم يلبث الفاتحون الجدد حتى أصبحت لهم السيادة ، وأخذ غيرهم من القبائل الإسلامية يفد إليهم. وانتشر الإسلام فى تلك البلاد وأخذت ثقافة المسلمين تأخذ مكانها فى تلك الربوع أصبحت بلاد شمال إفريقيا بأكلها من حدود مصر حتى المحيط الأطلنطى منذ ذلك الوقت حتى الآن عربية الصبغة فى مجموعها ، ولو أنه ما زال للسكان القدماء من البربر فى بعض جهات شمال إفريقيا وبخاصة فى الجزائر والمغرب أثر كبير وثقافة حية ، ولهم لغتهم التى لم تقض عليها الأكثرية العربية أو الثقافة العربية حتى اليوم .

وليس من شأن هذه الأحاديث أن تتعرض لتاريخ البلاد أو آثارها فى العهد الإسلامى ولهذا سنخصص هذا الحديث لتاريخ شمال إفريقيا وشعوبه القديمة قبل عهد الرومان ونتكلم فى الحديث القادم عن أهم الآثار الرومانية الباقية حتى اليوم .

وإذا أردنا الرجوع إلى أقدم العصور نرى أن الأبحاث الأثرية قد أثبتت وجود مناطق كثيرة فى جميع البلاد وبخاصة فى الجزائر كانت عامرة بأهلها فى العصر الحجرى وأن هؤلاء السكان لم يخلفوا وراءهم أدواتهم من احجار الظران وحسب بل خلفوا أيضا كثيرا من النقوش فوق الصخور وبعضها ملون ويرجع تاريخها إلى ما قبل ستة آلاف سنة .

وكان يقطن هناك أقوام عديدون ، بعضهم على مقربة من الشاطئ والبعض الآخر يقطنون بعيداً فى الداخل ، ومنذ بداية التاريخ المصرى القديم أو بعبارة أدق منذ الأسرة الأولى المصرية حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد كان يعيش إلى الغرب من مصر شعب اسمه شعب « التحنو » أشبهوا المصريين فى ملابسهم وعاداتهم وكان يقوم بينهم وبين المصريين بعض الحروب عند ما كان يحاول بعض منهم الاستقرار فى الدلتا .

وجاء أقوام آخرون من الغرب أخذوا يحاربون « التحنو » ويحلون فى بلادهم وكان هؤلاء الأقوام الجدد يسمون ال « تمحو » وقد رسمهم المصريون على آثارهم وهم يلبسون ملابسا تختلف عن ملابس التحنو ويضعون الريش فى رؤوسهم ، أما لون بشرتهم فقد كان أبيضا ورسم بعضهم بعيون زرقاء أو شهلاء وشعر أصفر .

كان مجئ التمحو فى وقت مبكر فى التاريخ ، ومن المرجح جداً أن خوفو بانى الهرم الأكبر فى الأسرة الرابعة المصرية أى منذ أكثر من ٤٥٠٠ سنة تزوج أميرة منهم أصبحت أما لفرع من فروع العائلة المالكة ، وقد رسمت إحدى أميرات هذا الفرع وابنتها فى إحدى مقابر الجيزة شرقى الهرم الأكبر وهى تلبس ملابسا مختلفة عن ملابس المصريات كما لون الفنان المصرى شعرها بلون أصفر ذى حمرة بدلا من الأسود ، كما لون عينيها بلون غير اللون الأسود المعتاد كغيرها من المصريات المرسومات فى المقبرة نفسها .

ويسمى علماء الآثار المصرية هؤلاء القوم بالليبيين، أما إذا أردنا أن نعرف من أين أتوا فلسنا نجد إلا تفسيراً واحداً وهو أنهم من شعوب شمال أوروبا عبروا إلى إفريقيا عن طريق بوغاز جبل طارق ، أو على الأقل من الشعوب التى امتزجت بهؤلاء القادمين من الشمال كما فعلت الشعوب الجرمانية منذ ١٥٠٠ سنة عندما جاء «الفاندال» إلى شمال إفريقيا . وتسير القرون ويظل اسم

« التحنو » قليلا ثم ينتهى فيصير اسما جغرافياً فقط ولكن « التمحو » يبقون ، ويستمر اسمهم يظهر من آن لآخر فى النصوص المصرية حتى جاءت الدولة الحديثة أى منذ حوالى ٣٤٠٠ سنة .

ولسنا نشك فى أن النفوذ المصرى وجد طريقه إلى البلاد القريبة منه ولكننا لا نستطيع أن نحدد تأثير هذا النفوذ أو مدى ما وصل إليه حتى جاءت أيام الإمبراطورية فأصبحت واحات الصحراء الغربية كلها تحت نفوذ مصر الكامل ، كما انتشر النفوذ المصرى على الشاطئ الإفريقى فيما نسميه الآن ليبيا وربما فى تونس ، ولكن ليس لدينا أى دليل على أنه امتد إلى أبعد من ذلك .

وما جاءت أيام الأسرة التاسعة عشرة أى حوالى عام ١٢٥٠ قبل الميلاد حتى أخذت أسماء بعض الشعوب المستوطنة فى ليبيا وما يليها إلى الغرب تظهر فى النصوص المصرية كجنود مرتزقة فى خدمة الفراعنة ، ثم نراهم بعد ذلك يجمعون جموعهم ويهجمون على مصر فيصدهم مرنبتاح ثم يجمعون جموعهم مرة أخرى ويتحالفون مع شعوب بحرية جاءت من أوروبا ويهاجمون مصر من البر والبحر فيتلقاهم الجنود المصريون والأسطول المصرى فيهزمهم شر هزيمة وتنجو مصر من خطر داهم لا يقل عن خطر الهكسوس الذين احتلوا البلاد قبل ذلك بعدة قرون .

كان ذلك الهجوم البرى والبحرى فى عهد رمسيس الثالث . ونرى تفاصيله مسطرة على جدران معبده فى مدينة هابو بالأقصر . نرى مناظر السفن التى جاءت عليها شعوب البحر ، ونرى ملابسهم وأسلحتهم ونقرأ أسماءهم ، كما نقرأ أيضا تفاصيل ذلك الصدام الذى نعرف فيه أنه أول صدام فى التاريخ بين مصر وأوروبا وصلت إلينا أخباره وسجله المصريون على آثارهم .

ارتد هؤلاء الغزاة مدحورين عن مصر ، وتفرقوا ثم استقر بعضهم فى مواضع مختلفة فى جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى بعض شواطئه ،

وما زالت بعض أسماء تلك الشعوب باقية نرددها حتى اليوم فالپلست نزلوا فيما نسميه الآن فلسطين وليس اسم جزيرة سردينيا إلا نسبة للشردن، وجزيرة صقلية مأخوذة من قبائل « الثكل » وهكذا .

ودار الزمن دورة أخرى من دوراته ، وأخذت بلاد الإغريق تظهر على مسرح العالم وأخذوا ينافسون الفينيقين فى التجارة . ولا شك أنه كانت هناك مدنية فى شمال إفريقيا ولكن لم يصل إلينا من تلك المدنية إلا بعض أدوات قليلة، و بعض الآثار الصغيرة أما قصورهم ومعابدهم وحصونهم فلم يعثر منها على شيء ذى قيمة كبيرة قبل تأسيس الفينيقيين لبعض المدن على الساحل الإفريقى مثل قرطاجنة فى عام ٨١٣ ق . م .

أنشأ الفينيقيون ميناء قرطاجنة فى ذلك الموقع الممتاز على مقربة من مدينة تونس الحالية ، ولم يمض عليها غير قليل حتى أخذت مقاليد التجارة فى البحر الأبيض تستقر فى أيدى أبنائها ، ولكن الإغريق أخذوا بدورهم يؤسسون مستعمرات لهم على الشاطئ الإفريقى وكانت أهم تلك المستعمرات مدينة قورينه التى أسسوها فى سنة ٦٣١ ق . م . وازدهرت ازدهاراً كبيراً وأصبحت أهم المدن التجارية على الشاطىء ، وكان أهلها ذوى صلة كبيرة بمصر وتجارة إفريقيا .

ولم يكن هناك مناص من وقوع الحروب بسبب التنافس التجارى، وكان الرومان قد أخذوا يحلون محل اليونان فى منافسة قرطاجنة وانتهى الأمر بانتصار الرومان وتثبيت أقدامهم فى التجارة ،واستقر منهم الكثيرون فى شمال إفريقيا بعد أن ضاقت بهم بلادهم .

ومما يرتبط أيضاً بتاريخ شمال إفريقيا وفود قبائل الڤاندال الجرمانية فى منتصف القرن الخامس الميلادى واستيلائهم على البلاد وتخريب الكثير من مدنها العامرة ولكن لم يمض عليهم إلا وقت قصير حتى انتهى أمرهم وزالت دولتهم .

وبدأت بيزنطة تنشر نفوذها فى شمال إفريقيا وكانت المسيحية قد أخذت تجد طريقها إلى تلك البلاد ، وخصوصا فى عهد جوستنيان الذى أمر بغلق المعابد الوثنيه ، ولكن لم يمض إلا القليل حتى جاءت جيوش المسلمين فتغيرت جميع الأوضاع .

ولسنا نشك فى وجود معابد قديمة قبل أن يأتى الفينيقيون إلى شمال إفريقيا ولسنا نشك أيضا فى أن الفينيقيين أقاموا حصونا وقصورا ومعابد فى قرطاجنة وفى عشرات الأماكن غيرها ، ولكن هذه الآثار لم تبق قائمة واستخدمت أحجارها فى تشييد المبانى الرومانية التى خلفها الرومان فى جميع بلاد شمال إفريقيا وأخذت يد العلم فى القرن الحالى تكشف عنها واحدة بعد الأخرى .

وليس من المستبعد أن يجد الباحثون آثاراً أقدم عهداً من الآثار الفينيقية واليونانية والرومانية كما أنه ليس من المستبعد أيضا أن نجد فى أساسات وفى أرضية المعابد والآثار الرومانية الأخرى ما هو أقدم منها بين بقايا المعابد .

ونحن نعرف أسماء الشعوب التى كانت تقطن شمال إفريقيا فى أواخر أيام الفراعنة، ونعرف مواطنها على وجه التقريب، وأين سكن التمحو والليبو والمشوش وغيرهم ، ونعرف أيضا أسماء تلك القبائل التى سكنت فى شمال إفريقيا كما ذكرها رحالة الإغريق فى القرن الخامس قبل الميلاد ونعرف الكثير من أخبار تلك البلاد عندما أخذ اليونانيون يؤسسون مستعمراتهم هناك ولكن لم تبق لسوء الحظ آثار قائمة ذات أهمية من تلك الأيام اللهم إلا بعض التماثيل التى ظلت فى أماكنها عندما أعيد تشييد تلك المعابد فى أوائل عهد الرومان .

يكفينا هذا القدر من إيضاح مامر على تلك البلاد وما أصيبت به آثارها ولنتحدث الآن عن أهم الآثار الباقية حتى اليوم فى شمال إفريقيا .

١٨

مِنْ ليبيا إلى المغربْ

* * *

سوف أتحدث عن أهم الآثار الرومانية فى شمال إفريقيا فى هذه الصفحات القلائل، وليس هناك من هو أكثر منى إدراكا بأن ذلك يكاد يكون فى حكم المستحيل إذ أننا لو سردنا فقط أسماء الأماكن الأثرية فى تلك البلاد لاستغرق هذا العمل أكثر من ذلك، ولهذا أرجو أن يسامحنى القارىء إذا لم أشر إلا إلى بعض المناطق الهامة أو لم أصف منها إلا القليل. وأرجوه أن يسامحنى أيضا إذا قصرت فى إشباع رغبته، وحسبى أن أنبهه إلى أهميتها .

ولنبدأ الآن بمدينة قرطاجنة فى تونس، فأما المدينة القديمة التى أنشأها الفينيقيون فقد بنيت فوقها مدينة أخرى كما أثبتت الحفائر التى بدأت فى تلك المنطقة عام ١٩٠٢ وما زالت مستمره حتى الآن، وقد أثبتت تلك الحفائر أيضاً أن جزءا منها بنى فوق جبانات فينيقية قديمة وأن الرومان أخذوا كثيرا من الأحجار القديمة فاستخدموها فى مبانيهم .

كانت ميناء قرطاجنة القديمة التى أنشأها أهل صور فى القرن التاسع قبل ميلاد المسيح أهم ميناء على البحر الأبيض، وكان لها أكبر أسطول تجارى وأكبر أسطول حربى لحماية سفنها وتجارتها . وكان اختيار الفينيقيين لذلك الميناء راجعا إلى صلاحيته العظيمة فبنوا الأرصفة المختلفة وأقاموا الأسوار حول المدينة لتحصينها . فإذا مشينا فى خرائبها اليوم فإننا نرى أنفسنا فى سوق المدينة وهو مشيد فوق السوق الفينيقى القديم، ونرى فيها المسرح والحمامات وحومة الألعاب الرياضية . أما المعابد فلم يبق الزمن إلا على القليل منها . ونجد بعض الآلهة الرومانية قد أخذت مكان الآلهة الفينيقية، فقد كانت الإلهة الفينيقية «تانيت» (تاعنت) هى صاحبة المقام الأول فى المدينة فأخذت مكانها

إلهة رومانية أخرى هى « كايلستيس » كما حل الإله الرومانى « ساتورنوس » أى زحل مكان الإله الأقدم بعل أمون . وفى وسط المدينة نجـد تل بيرسا الذى دفن فيـه القرطاجنيون القدماء موتاهم ثم حولوه بعـد ذلك إلى حصن مشرف على المدينة ، ولـكن الرومان حولوا الجزء المطل منه على البحر إلى حى أقاموا فيـه المنازل الخلوية للأغنيـاء . وتحتوى بعض هذه المنازل على فسيفساء جميلة ، ومن بينها فسيفساء من أجمل ما عثر عليه فى ذلك العهد وتمثل كثيرا من الأشخـاص يتمتعون بتنزههم فى الحدائق وعنـد خروجهم للصيد سواء على ظهر الخيل أو على الأقدام ، كما يمثـل أيضاً جنى بعض المحاصيل ، وفى وسطه رسم جميل لأحد بيوت الرومان .

ولا تبعد خرائب قرطاجنة عن مدينة تونس الحالية اكثر من سبعة عشر كيلو مترا ، وفى تونس نفسها متحفها القديم وهو أهم متاحف شمال إفريقيا ، وفيه أهم ما أخرجتـه الحفائر من المناطق المختلفة وبخاصة الآثار القديمـة من العصور اليونانية والرومانية والمسيحية وفيه بعض الأشياء النادرة التى لا نظير لها فى أى بلد آخر .

ولنترك قرطاجنة وتونس ولنتجه شرقا إلى ليبيا لنزور كثيراً من مناطقها ولنبدأ بآثار جرنا أو عين شحات وهو الاسم الحديث لمدينة قورينة أو كيرين القديمة التى أسسها الإغريق فى القرن السابع قبل الميلاد . لقد ازدهرت هذه المدينة فى أوائل عهدها ، ونمت وأصبحت مركزا هاما للتجارة كما أصبحت أيضا مركزاً لدراسات الطب والفلسفة وصارت مبانيها العامة أعظم وأفخم من مبانى الكثير من مدن بلاد اليونان والرومان ، ولـكنها أصيبت فى عام ١١٧ ميلادية بنـكبة حلت بها بسبب ثورة قام بها اليهود فلم تعد إلى ما كانت عليه من قبل لا فى أهميتها التجارية أو العلمية أو فى فخامة مبانيها .

وتتـكون آثار قورينة من بقايا المدينة القديمـة ، ومن مئات المقابر التى نحتت فى الجبال حولها وقد كشفت الحفائر عن كثير من المبانى كما عثر فيها

أيضا على كثير من بقايا التماثيل الهامة وبخاصة فى معبد الإله « أبولو » ، ويرجع تاريخ بعضها إلى أواخر القرن السادس وأوائل الخامس قبل ميلاد المسيح . ويستطيع زائر المدينة أن يزور أسواقها وبقايا معابدها وحماماتها وبقايا منازلها ، كما يزور أيضاً عين الإلهة « كيرا » التى سميت المدينة باسمها .

عثر الباحثون هناك على آلاف المدافن عدا المقابر المنحوتة فى الصخر وفيها بعض المظاهر المعمارية الهامة ، ومما يستحق الذكر أن قبر مؤسس كيرين وهو باتوس الأول أول ملوكها ما زال باقيا معروفا إلى الآن .

ولنترك عين شحات ولنذهب إلى طرابلس فنرى هناك قوس نصرها المشهور ذا الوجهات الأربع الذى بنى فى عصر الامبراطور الرومانى أنطونينوس الذى حكم من عام ١٣٨ — ١٦١ ميلاديه ولكن المدينة أعادت تقديمه فى عام ١٦٣ إلى من خلفه على العرش .

ولكلمة طرابلس قصة . فقد كان يونانيو جزيرة صقلية يطلقون اسم « تريبوليس » أى « المدن الثلاثة » على الموانىء الفينيقية القديمة فى تلك المنطقة وهى « لبتيس » ومكانها الآن لبيده و « سبراتا » واسمها الآن « زليتن » و « أويا » ومكانها الآن طرابلس وكانت ترتبط هذه المدن الثلاثة بأوروبا ومصر من ناحية وأواسط إفريقيا بدروب القوافل من ناحية أخرى .

وأغدق أباطرة الرومان على هذه المدن كثيراً وبخاصة الأولى والثانية ، وبنوا فيهما أفخم المبانى ، ولكن هاتين المينائين لم تعودا صالحتين لرسو السفن نظرا لسد مداخلهما فلم يبق منها إلا الثالثة فقط وهى « أويا » فأصبح اسمها تريبوليس أو طرابلس ، وصارت الميناء الصالحة الوحيدة فى مسافة تزيد على ألف ومائتى كيلو متر من الشاطىء الإفريقى .

فأما ميناء لبتيس الكبرى فهى قريبة من البلدة الحديثة المعروفة باسم « لبيده » ، ولسنا نغالى فى القول بأن ما كشفت عنه الحفائر الإيطالية فى هذه

المدينة منذ عام ١٩١١ تجعل آثارها درة هامة من درر الآثار فى شمال إفريقيا ، إذ يتجول الإنسان فى شوارعها ويرى مبانيها العامة وكنيستها الفخمة وحماماتها التى تضارع فى فخامتها حمامات الأباطرة فى روما وسوقها العظيم أو مسرحها اللذين يكادان أن يكونا سليمين ، وهنالك درة أثرية أخرى فى ليبيا وهى مدينة سبراتا التى يرجع تأسيسها مثل مدينة لبيده إلى أيام الفينيقيين فى القرن السابع قبل الميلاد .

لقد كشفت الحفائر عن كثير من مبانى المدينة القديمة وعن مبانى الميناء ، وهى فى أهميتها لا تقل عن لبتيس وما زالت بعض معابدها ومبانيها العامة قائمة ، وأهم ما تمتاز به هذه المدينة فى الوقت الحالى ولا يوجد له نظير فى غيرها من المدن الرومانية هو ما أبقى عليه الزمن مدفونا تحت الرمال من بقايا المسرح القديم وعليه رسوم تمثل القصص المختلفة ، وفيها أيضا الفسيفساء الشهيرة التى بقيت فى كنيسة جوستنيان أى من القرن السادس الميلادى وهى من أهم ما كشف عنه فى العالم من ذلك العصر ، وألوانها زاهية جميلة ومواضيعها المسيحية الأصل ذات أهمية خاصة .

لقد أطلنا الحديث عن ليبيا ولننتقل الآن إلى الجزائر ، وهنا لا نعرف ماذا نختار من مناطقها لنطيل الحديث عنه ، فهناك آثار تشرشل إحدى الموانى التى أسسها الفينيقيون وازدهرت فى العصر الرومانى وما زال الكثير من آثارها القديمة باقيا إلى الآن ، وهناك أيضا المدينة الرومانية القديمة التى كانت تسمى كويكول واسمها الآن « جميلة » وأسسها الإمبراطور « نرفا » فى أواخر القرن الأول وما زال الكثير من مبانيها قائما ويستطيع الزائر أن يتجول فى شوارعها القديمة . وكذلك آثار مدينة بون ومتحفها الصغير الهام ، ولكن أهمها جميعا فى الوقت الحاضر هى خرائب مدينة « تمجاد » فنرى فيها مثلا من خير الأمثلة للمدن القديمة الرومانية فى شمال إفريقيا وهى منظمة تنظيما بديعا وعلى الأخص فى حماماتها ودورات مياهها .

ويوجد فى مراكش أيضا كثير من بقايا المدن القديمة ولكن ليس من بينها ما يشبه ما ذكرنا من مدن ليبيا وتونس والجزائر كما أن الحفائر فيها لم تحظ حتى الآن بما حظيت به البلاد الأخرى من عناية .

لقد طوفنا اليوم كثيراً فى شمال افريقيا ، وطوفنا قبل ذلك فى الأقطار العربية المختلفة مشيرين ، ولا أقول أكثر من مشيرين ، إلى بعض مناطقها الأثرية الهامة التى يرجع تاريخها إلى ما قبل الإسلام .

ولكن رغم هذا كله ، فمازال هناك قطر عربى آخر ذو تاريخ قديم مجيد لم نتحدث عنه حتى الآن ، ذلك هو السودان العزيز الكريم الذى سيكون الحديث عن آثاره موضوع الفصل القادم .

١٩

السودان

***

أينما سار الإنسان فى أرجاء السودان وجد ما يذكره بحضارته القديمة ، فقد مرت على تلك البلاد فترات كثيرة قامت فيها دول وأسرات تركت وراءها آثاراً هامة . لقد قامت الحضارة على ضفاف النيل ، وربط هذا النهر الكريم بين البلاد التى فى شماله والبلاد التى فى جنوبه واتصل أهله ببعضهم منذ أقدم العصور وليس أدل على هذه الوحدة من النتائج التى تكشف عنها دراسة بقايا ما تركته العصور القديمة فى الشمال والجنوب ، فإن البلاد كانت متأثرة بمدنية واحدة لم تعرف حدودا فاصلة تقف عندها .

يرى المسافر إلى السودان على ظهر البواخر النيلية بعد تركها لأسوان سلسلة من المعابد على ضفتى النهر لا تختلف فى عمارتها عن مثيلاتها فى الأقصر وغيرها ، وهى لا تختلف أيضا عما سيراه بعد ذلك عند ما يصل إلى وادى حلفا وفى البلاد الأخرى إلى الجنوب منها . فعلى الضفة الغربية من النهر أمام مدينة وادى حلفا يستطيع الزائر أن يرى منطقة « بوهن » التى ازدهرت منذ أيام الدولة الوسطى فى مصر أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . ومن الأمور ذات الدلالة أن أحد المعبدين هناك ، وهو المعبد الشمالى ، قد أعاد بناءه الملك أحمس الأول محرر مصر من الهكسوس فإن هذا الملك قد أدرك أن إعادة الصلة بين شمال الوادى وجنوبه بعد فترة الضعف والتفكك التى سببها الغزو الأجنبى أمر تحتمه مصلحة البلاد فزار الجنوب وأعاد الصلة بعد انقطاعها وأقام هذا المعبد وغيره من المعابد .

وقبل أيام أحمس بوقت طويل أقام ملوك الأسرة الثانية عشرة سلسلة من الحصون فى شمال السودان لحمايته وحماية مصر من غزو قبائل الزنوج التى

كانت تغير عليها من آن لآخر ، وفى جزيرة أورونارتى نرى بقايا أحد تلك الحصون وعند زيارتها لا نملك أنفسنا من التفكير فى تلك اللوحة الجرانيتية التى أقامها الملك سنوسرت الثالث هناك ونعرف منها أن ذلك الملك قد نزل بنفسه إلى شمال السودان على رأس جيشه وأمر بشق ترعة فى صخور الشلال الأول عند أسوان لضمان سهولة الانتقال بالسفن بين الشمال والجنوب ، وأنه جعل الحد الجنوبى عند حصنى سمنة وكمه وقد قال فى هذه اللوحة : «أن أى فرد من سلالتى يحافظ على هذا الحد فهو ابنى وقد ولدته . انه ابن يشبه أباه ويحافظ على ملك من أنجبه . أما من يتقاعس ولا يذود عنه فهو ليس ابنى ولم يولد لى . انظروا ! لقد أقمت تمثالا إلى جانب هذه اللوحة ليعمكم خيره ولتحاربوا دونه» .

لنترك الآن جزيرة أورونارتى ولنتجه جنوبا لنصل بعد عشرين كيلو مترا إلى مكان ضيق أقام فراعنة الأسرة الثانية عشرة على كل من ضفتيه حصناً وبنوا فيه معبداً ، ان هذه الحصون والمعابد ، وهى سمنه وكمه ، ما زالت قائمة حتى الآن وعلى جدرانها أسماء من اهتموا بترميمها والاضافة اليها من فراعنة الدولة الحديثة ، كما نرى هناك أيضاً العلامات التى نقشها القدماء لتسجيل ارتفاع الفيضان عاما بعد عام وما تركوه هناك من نقوش كثيرة .

وفى دنقله مناطق أثرية كثيرة من أهمها آثار مدينة قديمة كانت تسمى «جم پاأتون» على مقربة من قرية سيسيبى ، وفيها معبد أقامه الملك اخناتون الذى دعا إلى التوحيد فى العبادة وأغلق معابد أمون والآلهة الأخرى فى مصر وشيد معابداً جديدة لإلهه «أتون» . فلما فشلت حركته وعاد للكهنة سلطانهم حطموا معابد أتون كلها فلم يبق منها إلا معبد سيسيبى فى السودان إذ اكتفوا بتشويه نقوشه فقط .

وكانت بعض الحاميات المصرية تقيم فى تلك الحصون وحولها للسيطرة على مجرى النيل وكانت أهم المـــدن فى ذلك العهد هى مدينة كرما التى تقـع

جنوبى الشلال الثالث بقليل ، وكانت عاصمة للمنطقة ويقيم فيها الموظفون وعائلاتهم ، ولكن الحياة فيها لم تكن حياة مصرية صميمة مثل مدن الشمال بل كانت مشوبة ببعض المؤثرات التى فرضتها البيئة الجغرافية وعادات القبائل التى كانت تعيش هناك .

ونعرف من نتائج الحفائر التى تمت فى تلك المنطقة أن المدنية فى اقليم دنقلة فى ذلك العهد أى منذ أربعة آلاف سنة تقريبا كانت شبيهة بالمدنية المصرية فى الشمال . وكانت هناك صناعات محلية لأدوات مصرية كانت تجد سوقا رائجة فى الجنوب وقد أثرت ثقافة مصر على هذا الاقليم كما أثرت الثقافة المحلية وعادات الأهالى على الوافدين إليهم من أبناء الشمال ، وأن هذا التأثير لم يقف عند أساليب الحياة اليومية بل كان أعمق أثراً من ذلك إذ امتد إلى المعتقدات الدينية ومراسيم الدفن . كان الأمراء النوبيون يدفنون فى مقابر مستديرة الشكل يقيمون فوقها تلا صغيراً من التراب والأحجار ويبعثرون فوقها الحصى . أما الميت فكان يوضع فى حجرة تحت الأرض فوق سرير بسيط ويدفنون معه عند وفاته زوجاته وأتباعه ، وقد بلغ عددهم فى بعض الأحيان أكثر من مائة . وظهر من فحص جثث أولئك الأتباع أن الوفاة لم تكن بالقتل ، اللهم إلا فى بعض حالات قليلة ، ويرجح أنهم كانوا يتناولون شراباً منوما يقضى على شاربه فى هدوء .

ومن أهم المقابر التى عثر عليها فى كرما قبر الحاكم المصرى لتلك البلاد فى أوائل أيام الأسرة الثانية عشرة إذ أن الحاكم واسمه «زفاى حعبى» ، وكان من أهالى أسيوط وشيد له قبراً عظيما فيها أثناء حياته ، قد مات فى كرما ودفن فيها حسب عادة أهل المنطقة ووضعوا معه فى قبره ما اعتاد المصريون على وضعه فى قبور موتاهم من أدوات وملابس وحلى وأسلحة وعطور ولكن أتباعه أبوا حسب العادة المتبعة إلا أن يصحبوه فى موته ليخدموه فى العالم الآخر كما خدموه فى الدنيا .

ولنترك الآن مدينة كرما لزيارة غيرها من المناطق ولنقف قليلا عند مدينة «نبتا» عند سفح جبل بركل ولنجعل بلدة كريمة مركزاً لزياراتنا إذ أن هذه المنطقة قد حلت مكان كرما كعاصمة للنوبة أثناء الدولة الحديثة وأصبح جبل بركل منطقة مقدسة قامت عند سفحه مدينة نبتا الشهيرة التي كانت أهم سوق تجارى فى الجنوب وكانت مركزاً لعبادة الإله أمون رع .

لقد ازدانت نبتا بالمعابد والقصور منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ولكنها لم تبلغ ذروة مجدها وعظمتها إلا فى القرن الثامن ق . م . عند ما أصبحت عاصمة لمملكة كوش التى استقل بها أبناؤها عن الشمال ، وزينها ملوكها العظام وبخاصة بيعنخى وطهرقا بالمعابد الكبيرة ، وظلت على ذلك حتى حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد عند ما نقلوا عاصمة الملك إلى مروى فى الجنوب وأصبحت نبتا عاصمة دينية فقط . فعلى جانبي النيل حوالى مدينة نبتا نرى جبانات متعددة قامت فيها مئات الأهرام الصغيرة . فعلى مقربة من قرية نورى مثلا نجد مجموعة من تلك الأهرام أبقى الزمن على ثمانية وخمسين منها بينها عشرون للملوك والباقى للملكات والأمراء ، وأقدم هذه الأهرام وأهمها هرم الملك طهرقا . وهناك أيضا منطقة كورو التى تبعد نحو اثنى عشر كيلو مترا من كريمة وفيها أهرام لبعض الملوك الآخرين مثل هرم « تانوت ـ أمانى » من القرن السابع قبل مولد المسيح وهرم الملكة كالهاتى ، وفى هيا كل بعضها نقوش هامة على درجة كبيرة من الاتقان .

وعند ما نقف فى منطقة نبتا نسرح الطرف فيما أبقى عليه الزمن من جدران معبد أمون رع وأعمدته ، وفيما يظهر فى الأفق من أهرام متناثرة لا نملك أنفسنا من التفكير فيمن أقاموها . ومن حسن الحظ أن الزمن قد أبقى على كثير من المناظر التى على جدران مقابر طيبة وعلى الأخص قبر « حوى » الذى كان حاكما لكوش فى عهد الملك توت عنخ أمون ، ونرى على جدران ذلك القبر رسوما كثيرة منها منظر يمثل واجهة قصره هناك، ولكن

أهم مناظر ذلك القبر هى الهدايا التى كان يحضرها زعماء كوش كل عام إلى طيبة ليقدموها هدية إلى ملك مصر ، فان هذه الهدايا تنقل إلينا ، وتضع أمام أعيننا صفحات من حياة السودانيين فى ذلك العهد والمدى العظيم الذى بلغه الصانع السودانى قبل ٣٤٠٠ سنة . ونرى فيها ملابسهم وأسلحتهم وما كانوا يصنعونه من أثاث منزلى لا يقل فى ذوقه وفى جماله عن خير ما يستخدمه أى شعب فى العالم فى الوقت الحاضر .

لقد دار الزمن دورة بعد أخرى ، وتعرضت مصر للغزو الأجنبى فذهب كهنة أمون رع إلى الجنوب حيث وجدوا الأمن والطمأنينة . واستقل الجنوب وأسس الكهنة بيتاً حاكما فى نبتا لم يلبث أن قام بواجبه نحو تحرير الشمال وإعادة الوحدة إلى وادى النيل . ومن ذا الذى يقف بين خرائب جبل بركل فى نبتا ولا يتصور الملك « پيعنخى » ، وقد جلس فى قصره هناك يستمع إلى أخبار جيشه الذى أرسله إلى مصر أو يتصوره وهو يودع جيشه الذى أرسله إلى الشمال .

إنى أكاد أراه وقد وقف ينظر إلى معبد أمون رع عند سفح الجبل المقدس ويطيل النظر إلى صرحه العالى ترفرف أمامه أعلام أمون رع فوق سارياتها ، وقد وقف حوله وزراؤه وكبار الكهنة ثم يلتفت إلى ضباط جيشه المتأهب للسفر ويقول لهم كما جاء على لوحته الشهيرة : « إذا ما وصلتم إلى طيبة حيث يوجد معبد الكرنك فانزلوا إلى النهر واغتسلوا فى مياهه والبسوا ملابس الكتان الجميلة . ضعوا القوس جانبا واخلعوا عنكم جعبة السهام . لا يفتخرن أحدكم بقوته فلا قوة لمن لا يؤمن بأمون» . لقد عاش فى هذا المكان ملوك أعزة لم يقبلوا أن يقع شمال الوادى فريسة للفوضى والانقسام أو تتعرض طيبة مركز عبادة أمون لما يسوءها فعقدوا العزم على تخليص البلاد . ووضع پيعنخى ومن جاءوا بعده تاج مصر على رؤوسهم ، وأقاموا المعابد فى أرجاء مصر وفى كثير من أرجاء السودان ، ونشروا المدنية فى بقاع

كثيرة فى الجنوب وكان لهم فضل كبير ، ما زال التاريخ يذكره لهم وسيذكره على الدوام .

وبذل ملوك نبتا كل ما وسعهم الجهد لدفع خطر الأشوريين عن مصر ، وتروى لنا التوراة الشيء الكثير عن طهرقا وحروبه فى فلسطين ، فلما رأوا أن تيار الحوادث أقوى مما يستطيعون تحمله عادوا إلى نبتا وتركوا أبناء الشمال يحملون العبء بأنفسهم . وما هى إلا دورة أخرى من دورات التاريخ حتى استتبت الأمور فى مصر وخلص أبناؤها أنفسهم من خطر أشور ، وقامت الأسرة السادسة والعشرون تعيد لمصر سابق مجدها . ولكن السحب القائمة لم تلبث حتى تجمعت مرة أخرى وقامت دولة الفرس تخضع بلاد الشرق لسلطانها فوقعت مصر فريسة لقمبيز الذى أراد أن يتم انتصاره بضم السودان اليه ، ولكن ملوك نبتا نقلوا عاصمتهم إلى مروى على مقربة من شندى فأصيب قمبيز وجيشه الذى سيره عليهم بهزيمة كبيرة قضت على أطماعه .

ولكن دعنا الآن من قمبيز وجيش قمبيز ولنتقدم نحو الجنوب لنزور منطقة آثار مروى . إن زائر أطلال مروى لا يكاد يميز شيئا من معابدها الشهيرة التى ذكرها القدماء وسجلتها الآثار ، ولكنه إذا تجمل بالصبر أو كان معه من يرشده فسيرى بقايا معبد الشمس وقد كان مشيداً على مدرجات ، وفى أعلاها نرى بقايا الهيكل والمسلة التى كانت مقامة لعبادة الشمس أما المدرج الأسفل فكان على هيئة عقود متتالية وقد حليت جدران المعبد بنقوش تمثل الملك اسپالتا منتصرا على أعدائه .

وفى الناحية الغربية من شريط السكة الحديد خلف منازل قرية البقراوية منطقة أثرية هامة فيها معبد للإله أمون يرجع تاريخه إلى حوالى عام ٣٠٠ق.م وما زال صرحه قائما وبعض نقوشه محفوظة، ومن أهم ما فيه العرش الحجرى الذى كان يجلس عليه الكاهن الذى كان يهبط عليه وحى أمون فيجيب على

أسئلة السائلين ، كما نرى هناك أيضا بقايا قصرين من قصور الملوك وعلى مقربة منهما بركة ماء كانت درجاتها مزينة بالتماثيل .

وعلى مقربة من قرية الكبوشية توجد مجموعة كبيرة من الأهرام وهى المعروفة باسم أهرام مروى وتشبه أهرام نورى وكورو ، وكانت لها هياكل فى الناحية الشرقية منها ، زينت جدرانها بالنقوش ، وعثر فيها على آثار كثيرة هامة بعضها الآن فى متحف بوسطن بأمريكا والبعض الآخر فى متحف الخرطوم ويرجع تاريخها إلى الوقت الذى كانت فيه مروى عاصمة للبلاد أى بين القرن الثالث قبل الميلاد و القرن الرابع الميلادى .

فإذا تركنا مروى واتجهنا قليلا نحو الجنوب فإنا نمر بمنطقة أثرية بعد أخرى أخصها بالذكر منطقة «وادى بناجة» حيث يوجد فيها معبدان هامان . ومنطقة « مصورات » التى كانت مقرا لأحد الملوك الاثيوبيين أقام فيها قصرا له وألحق به كثيرا من الهياكل وأجنحة لخدمه وجياده وماشيته وهى من أهم المناطق الأثرية فى السودان .

لقد تحدثت عن آثار كرما فى دنقلة وآثار جبل بركل ، وذكرت الشيء القليل عنها وعن مروى ، ولكن آثار السودان ما زالت أيضا تمتد كثيرا نحو الجنوب . ففى الخرطوم وأم درمان عثر على مناطق أثرية للسكان القدماء من العصر الميزوليتى والنيوليتى وهى من أهم الحضارات من ذلك العصر فى وادى النيل كله ، كما أن منطقة الجزيرة ملأى بالمناطق الأثرية أذكر من بينها منطقة « سجدى مويا » التى تم حفرها وعثر فيها على آثار كثيرة هامة .

كان السودان منذ أقدم العهود ، بما فيه من خيرات وأرض صالحة للزراعة ومن سكنه من جنس سامى حامى ، على استعداد كامل لقبول الحضارة وتطورها ولكنه كان فى الوقت ذاته معرضا لضغط بعض القبائل التى عاشت فى الجنوب، والتى كانت تقطن أيضا فى الشرق أو فى الغرب منه ، كما كانت تزدهر حضارته فى الأوقات التى تقوى فيها صلاته بالشمال .

وقد لاحظ كثير من العلماء أوجه الشبه الكثيرة بين بعض العادات التى ما زالت تمارسها بعض القبائل وبخاصة الدنكا والنوير والشلوك وبعض قبائل شرق السودان وبين بعض العادات والطقوس المصرية القديمة . ولا شك أن جزءا من ذلك راجع إلى الأصل المشترك القديم كما يرجع جزء منه إلى ماقام به ملوك نبتا ومروى من توسع فى أرجاء الجنوب والصلات التجارية التى كان يقوم بها تجارهم الذين لم يحملوا معهم بضاعتهم وسلعهم فقط بل حملوا معهم أيضاً الثقافة والعادات . وانى أنقل هنا ماكتبه المرحوم الدكتور ريزنر، وهو من أعظم العلماء الذين اهتموا بآثار السودان وتاريخه القديم ، عند حديثه عن ملوك نبتا : « إن النتائج التى وصلت إليها هى أن هؤلاء الملوك حكموا مديريات حلفا ودنقله وبربر والخرطوم والنيل الأزرق ومنطقة الجزيرة وما يليها من مناطق النيل الأبيض ، وكانت مديريات كسلا والبحر الأحمر وكردفان داخلة فى نطاق نشاطهم الحربى » .

إن السودان غنى بآثاره ، وغنى بما خلفته حضارات عصوره المختلفة ، وترتبط هذه الآثار فى دراستها ارتباطا وثيقا بآثار شمال الوادى فهما فرعان من شجرة واحدة ذات جذور ثابتة وغصون ممتدة استظل بظلها عدد غير قليل من الأمم والشعوب .

اللوحات الفوتوغرافية والصور

اليمـــن :

لوحة رقم ١ — معبد العمايد فى مأرب . . . . . . تصوير المؤلف
« « ٢ — ســـد مـــأرب . . . . « «
« « ٣ — أحد معابد معين فى بلاد الجوف . « «

العـــراق :

لوحة رقم ٤ — رسم تخيلى لحورابى ملك بابل فى قصره — نقلا عن المجلة الجغرافية الأهلية بواشنطون .
« « ٥ — رسم تخيلى لطريق المواكب وبوابة عشـتر — نقلا عن المجلة الجغرافية الأهلية بواشنطون .

ســـوريا :

لوحة رقم ٦ — (ا) و (ب) : زعمـاء سوريون يحضرون هداياهم إلى طيبة فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد — من مقابر طيبة ، ومن رسم ديفز .
« « ٧ — معبد بعل فى تدمر (پالميرا) . . . تصوير المؤلف
« « ٨ — منظر آخر فى آثار تدمر . . . . « «
« « ٩ (ا) — مسرح مدينة بصرى فى جنوبى سوريا « «

لبنـان :

لوحة رقم ٩ (ب) – منظر عام لجزء من معابد مدينة جبيل – مديرية السياحة اللبنـانية .

« « ١٠ (ا) – الأعمدة الستة فى معبد چوپتر ببعلبك – مديرية السياحة اللبنـانية .

« « ١٠ (ب) – نموذج لمعابد بعلبك قبل تهدمها – مديرية السياحة اللبنـانية .

الأردن :

لوحة رقم ١١ – المسرح الكبير فى جرش – من مجموعة صور المستر چفرسون كافرى .

« « ١٢ – معبد الإلهـة إرتيمس فى جرش – من مجموعة صور المستر چفرسون كافرى .

« « ١٣ – خزنة فرعون فى بطرا – من مجموعة صور المستر چفرسون كافرى .

« « ١٤ – المقبرة المعروفة باسم القصر فى بطرا – من مجموعة صور المستر چفرسون كافرى .

مصر :

لوحة رقم ١٥ – أبو الهول والهرم الأكبر – مصلحة السياحة المصرية .

« « ١٦ – معبد الأقصر – تصوير سيف وقديس .

« « ١٧ – رسم تخيلى لحفلة مصرية فى طيبة – نقلا عن المجلة الجغرافية الأهلية بواشنطون .

لوحة رقم ١٨ — معبد أغورمى فى واحة سيوة — تصوير المؤلف

» » ١٩ — مقبرة سا-أمون فى سـيوة — » »

ليبيا :

لوحة رقم ٢٠ (ا) — آثار لبتيس ماجنا (لبيده) فى ليبيا — نقلا عن كتاب الحفائر والحفارين (باللغة الألمانية)

» » ٢٠ (ب) — آثار لبتيس ماجنا (لبيده) فى ليبيا — نقلا عن كتاب الحفائر والحفارين (باللغة الألمانية)

» » ٢١ (ا) — فسيفساء من كنيسة جوستنيان بسبراتا . فى ليبيا — من كتاب الحفائر والحفارين (باللغة الألمانية) .

تونس :

لوحة رقم ٢١ (ب) — فسيفساء عثر عليها فى أرضية أحد المنازل فى تل بيرسا بقرطاجنة - متحف تونس .

الجزائر :

لوحة رقم ٢٢ (ا و ب) — منظران لآثار مدينة جميلة (كويكول) فى الجزائر — من دليل مدينة جميلة (باللغة الفرنسية) .

السودان :

لوحة رقم ٢٣ — حوى حاكم السودان فى عهد توت عنخ أمون ومعه الزعماء السودانيون وهداياهم — من مقبرته بطيبة

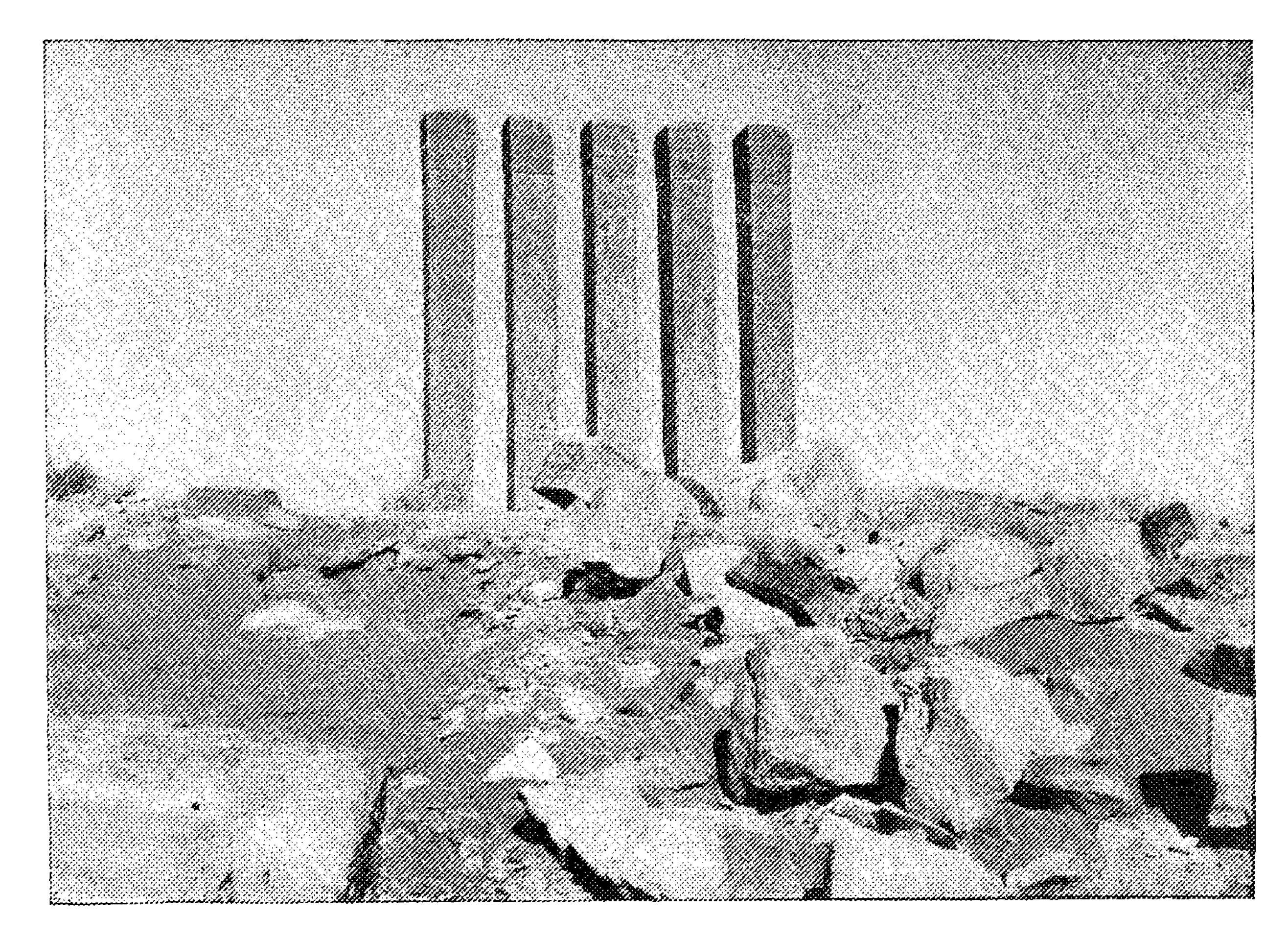
« « ٢٤ ا — بعض أهرام نبتا (جبل بركل) كما كانت فى أوائل سنى القرن الماضى — عن كتاب الرحالة الفرنسى كايو « رحلة إلى مروى » .

« « ٢٤ب — معبد الاله الأثيوبى ابزماك فى وادى بناجـه على مقربة من شندى — تصوير المؤلف .

الصورتان الملونتان وإحداها لأميرة مصرية من الأسرة الثانيـة عشرة المصرية (حوالى ١٩١٠ ق.م) أثناء زينتها ، والثانية التى تمثل إحدى ملكات أور فى العراق وهى تسير فى موكب جنازة زوجها لتدفن حيه مع جميع أتباع ذلك الملك ، منقولتان عن المجلة الجغرافية الأهلية بواشنطون .

الخريطة الجغرافيه لمنطقة العالم العربى رسمها
الأستاذ عبد العزيز صادق فهمى

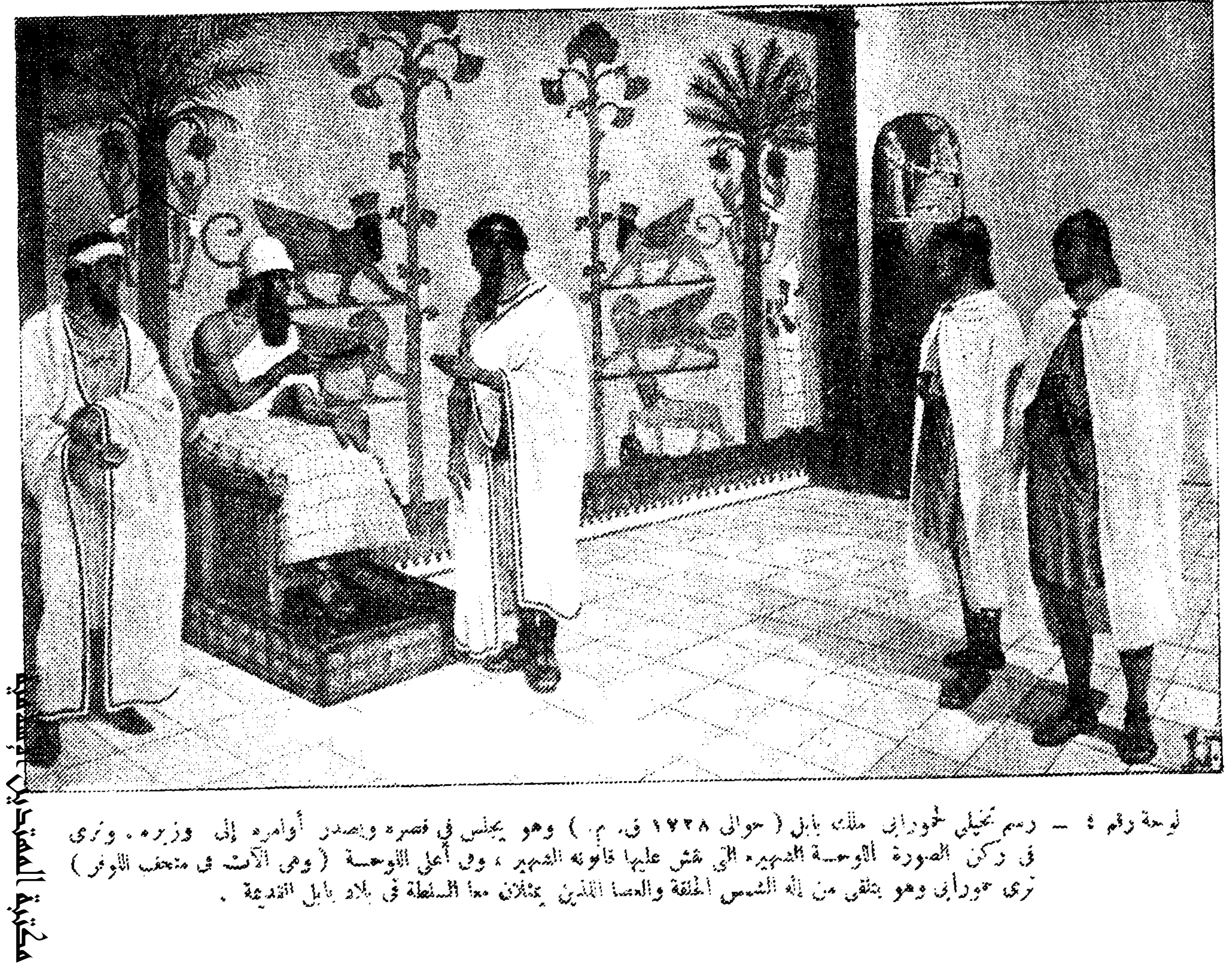
الصـــور الفوتوغرافية



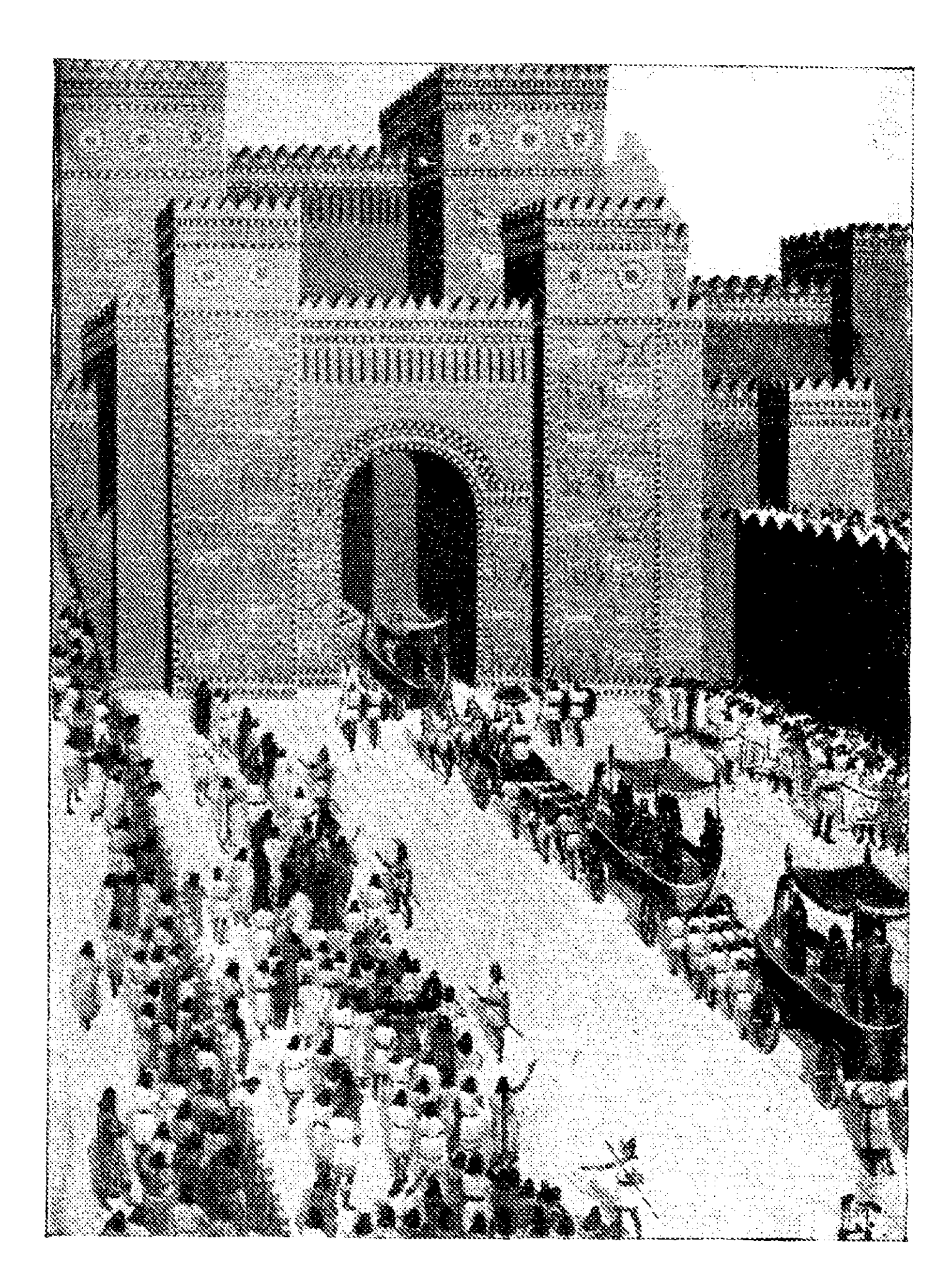
لوحة رقم ١ ـ معبد العابد في مأرب باليمن : مازالت هذه الأعمدة الخمسة قائمة بين خرائب المعبد وحولها الأحجار التي تزينها النقوش والزخارف ، ويرجع تاريخ هذا المعبد إلى أكثر من ألفين وخمسمائة سنة مضت .



لوحة رقم ٣ — أحد معابد معين في بلاد الجوف في اليمن ؛ وهو أحد المعابد المعينية الكثيرة ومشيد بأحجار الجرانيت وعليها النقوش المعينية التي تحدثنا عن تاريخ هذه البلاد وحضارتها العريقة .



لوحة رقم ٤ — رسم تخيلي لحورابي ملك بابل (حوالى ١٧٢٨ ق. م.) وهو يجلس في قصره ويصدر أوامره إلى وزيره . وترى في ركن الصورة اللوحة الشهيرة التي نقش عليها قانونه الشهير ، وفي أعلى اللوحة (وهي الآن في متحف اللوفر) ترى حورابي وهو يتلقى من إله الشمس الحلقة والعصا اللذين يمثلان معاً السلطة في بلاد بابل القديمة .



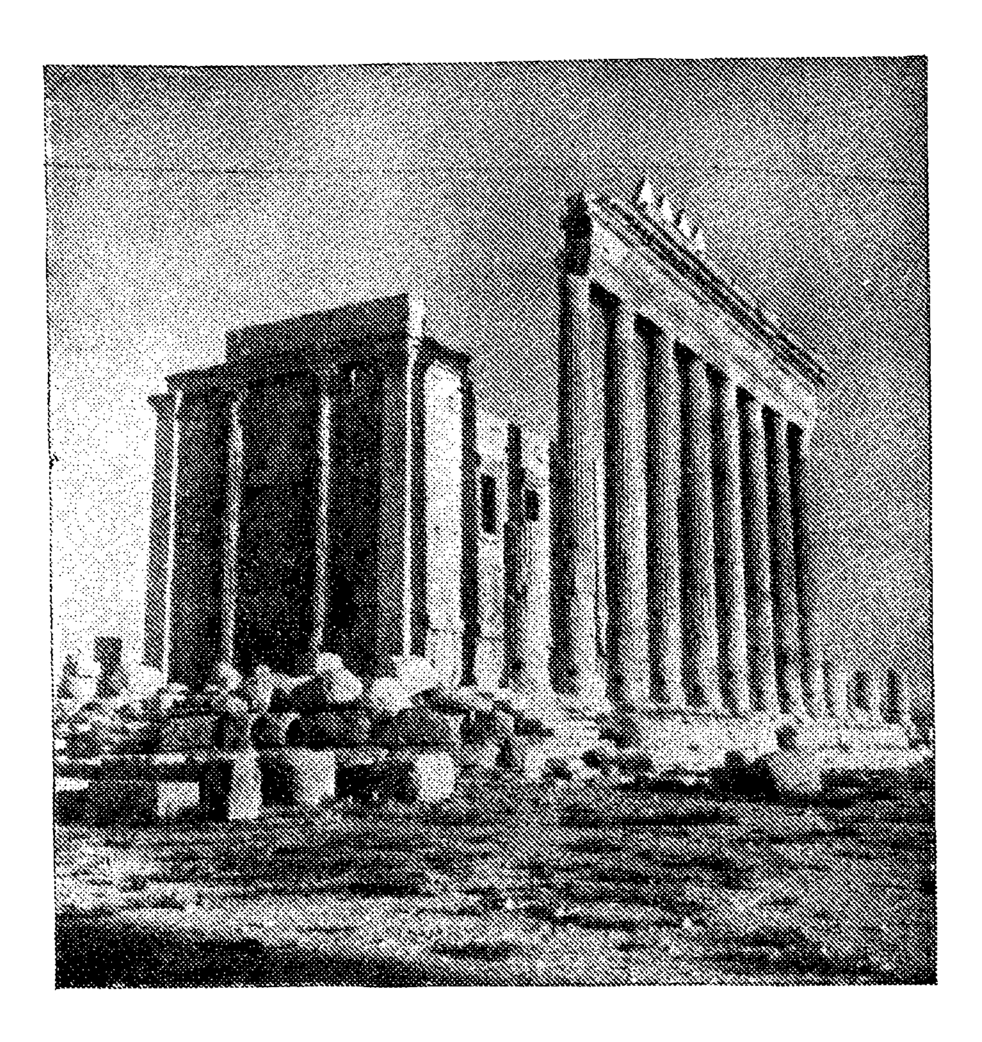
لوحة رقم ٥ — رسم تخيلي لطريق المواكب وبوابة عشتار الشهيرة في مدينة بابل في أيام الملك نبوخذ نصر الثاني في القرن السادس قبل الميلاد . ويرى في هذا الرسم عودة موكب الآلهة الذين وضعوا تماثيلهم في عربات على هيئة سفن وذلك في يوم ١١ من نيسان أثناء الاحتفالات السنوية بالعام الجديد



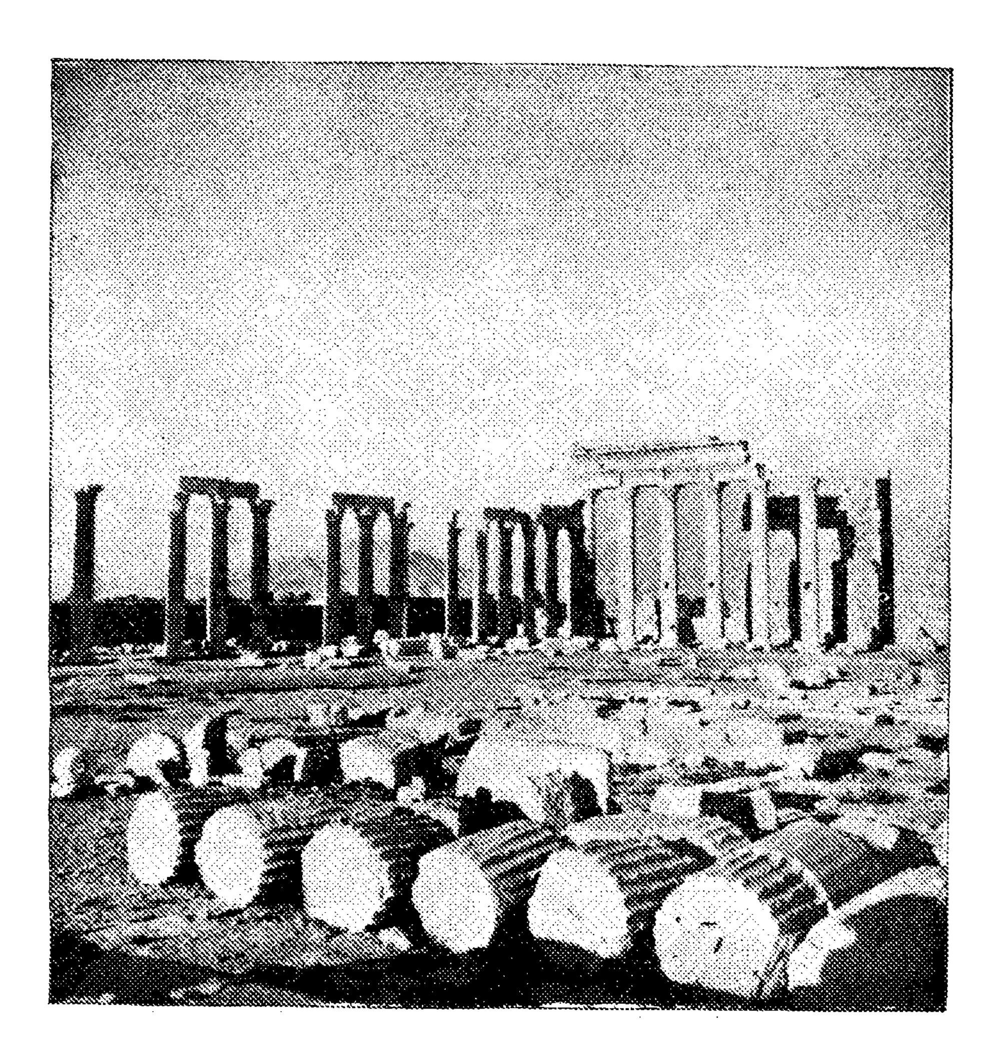
لوحة رقم ٦ (أ)
بعض الزعماء السوريين يحملون هداياهم من المصنوعات السورية وبخاصة من الأواني الذهبية الفخمة والأسلحة وغيرها . ونرى أحد الزعيمين يحمل إناء ذهبياً جميلاً الصنع في احدى يديه ويحمل في اليد الأخرى ناب فيل حليت نهايتاه بالزخارف الذهبية بينما نرى الزعيم الآخر ومعه ابنته الصغيرة .



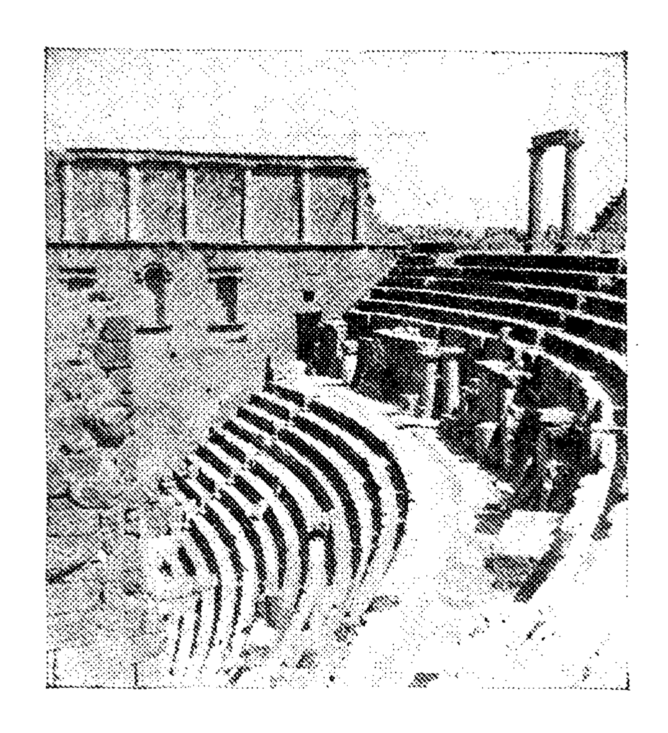
لوحة رقم ٦ (ب)
ونرى في هذه الصورة وفي عشرات غيرها في مقابر طيبة بمصر الملابس السورية في منتصف الألف الثاني قبل مولد المسيح أي منذ أكثر من ثلاثة آلاف وأربعمائة سنة كما نرى أيضاً مدى تقدم سوريا في مختلف الصناعات ومظاهر المدنية ٠



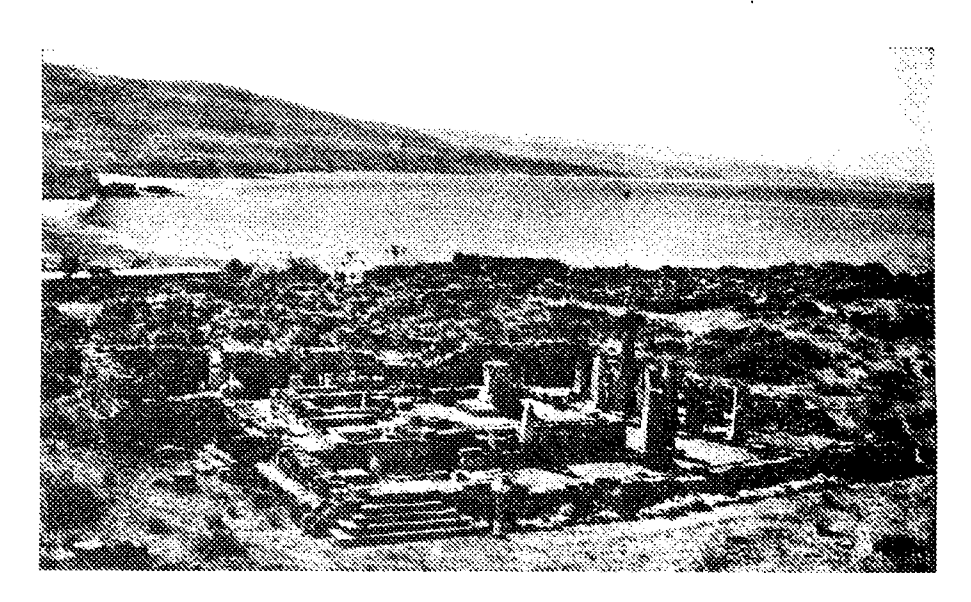
لوحة رقم ٧ — معبد بعل فى تدمر « بالميرا » وقد بدئ فى تشييده قبل مولد المسيح بوقت قصير وتم بناؤه فى القرن الأول الميلادى ، ونرى هنا صفا من أعمدته الكورنثية التيجان وعلى العتب الذى فوق الأعمدة إفريز محلى بزخارف جميلة تمثل صوراً انسانية مجنحة تحمل الثمار ، وفوق العتب صف من الأحجار المثلثة .



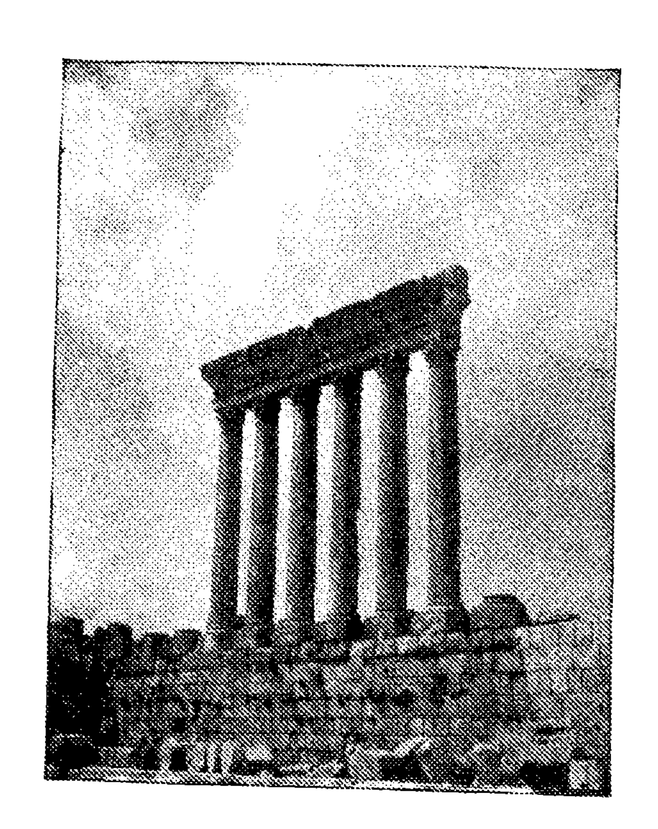
لوحة رقم ٨ ـ صورة أخرى لآثار مدينة تدمر : وهي لا تعد من أهم المناطق الأثرية في سوريا فحسب بل وفي بلاد الشرق كلها . ونرى في هذه الصورة الركن الجنوبي ـ الغربي . كانت مباني تدمر هي الأصل الذي نقلت عنه بعض مباني أنطاكية ، ومنها انتشر ذلك الطراز في العمارة إلى كثير من بلاد الشرق بعد ذلك .



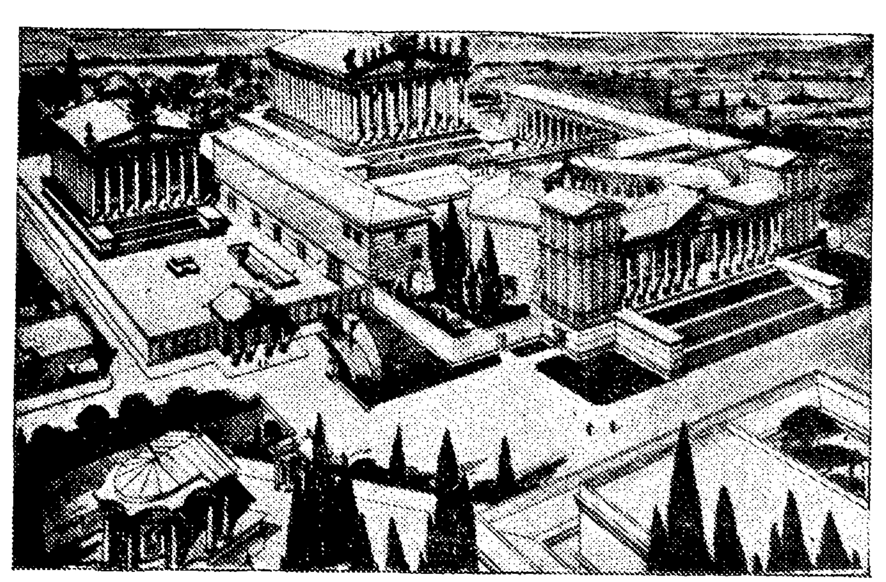
لوحة رقم ٩ (أ) — مسرح مدينة بصرى فى جنوبى سوريا وقد احتفظ بأكثر أجزائه ، وربما كان خير مثل باق بين آثار العالم العربى المسارح القديمة .



لوحة رقم ٩ (ب) — منظر لجزء من معاهد مدينة جبيل (جبلة) فى لبنان : كانت جبيل أقدم المواني القائمة على الشاطئ السورى وكانت على صلة بالموانى المصرية منذ أقدم العصور وكان فيها معبد مصرى منذ الألف الثالث قبل الميلاد .



لوحة رقم ١٠ (ا) الأعمدة الستة الباقية فى معبد جوبيتر فى بعلبك (هليوبوليس) وقد بدىء فى تشييده منذ منتصف القرن الثانى بعد مولد المسيح وكان مجموع تلك الأعمدة أربعة وخمسين عمودا وارتفاع كل عمود منها نحو عشرين مترا .



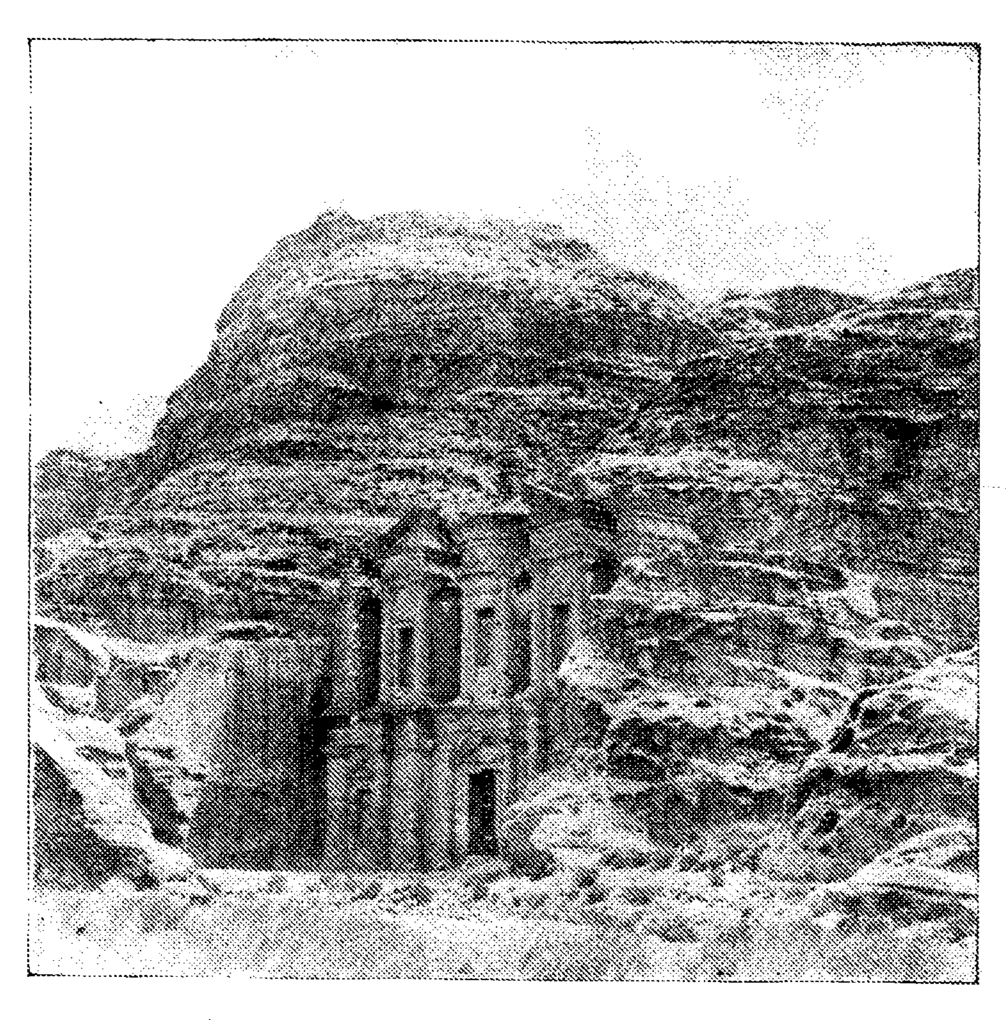
لوحة رقم ١٠ (ب) — نموذج لما كانت عليه معابد بعلبك قبل ان تهدم ، ونرى فيها معبد الإله باخوس وغير ذلك من المبانى .



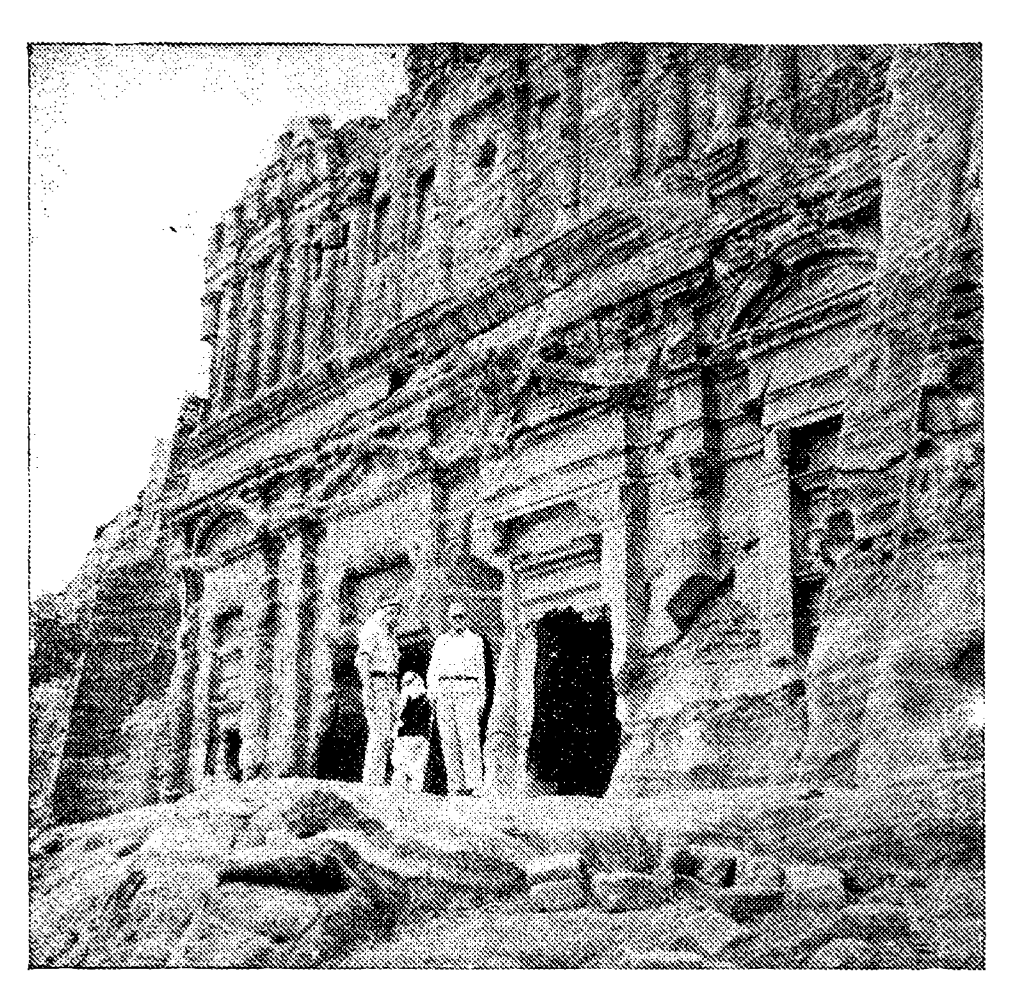
لوحه رقم ١١ — المسرح الكبير في جرش : وكان يتسع لأكثر من خمسة آلاف زائر وفيه اثنا وثلاثون صفا دائريا ، وما زالت أكثر اجزائه باقية حتى اليوم . كان المعماريون القدماء يعنون كثيرا بأمر الصوت لأن المسارح كانت غير مسقوفة ، ويستطيع الزائر الحديث أن يدرك ذلك بسهولة فانه بالرغم مما أصاب هذا المسرح من تخريب فان صوت أي متحدث ، حتى ولو كان منخفضا ، يسمع في أرجائه كلها .



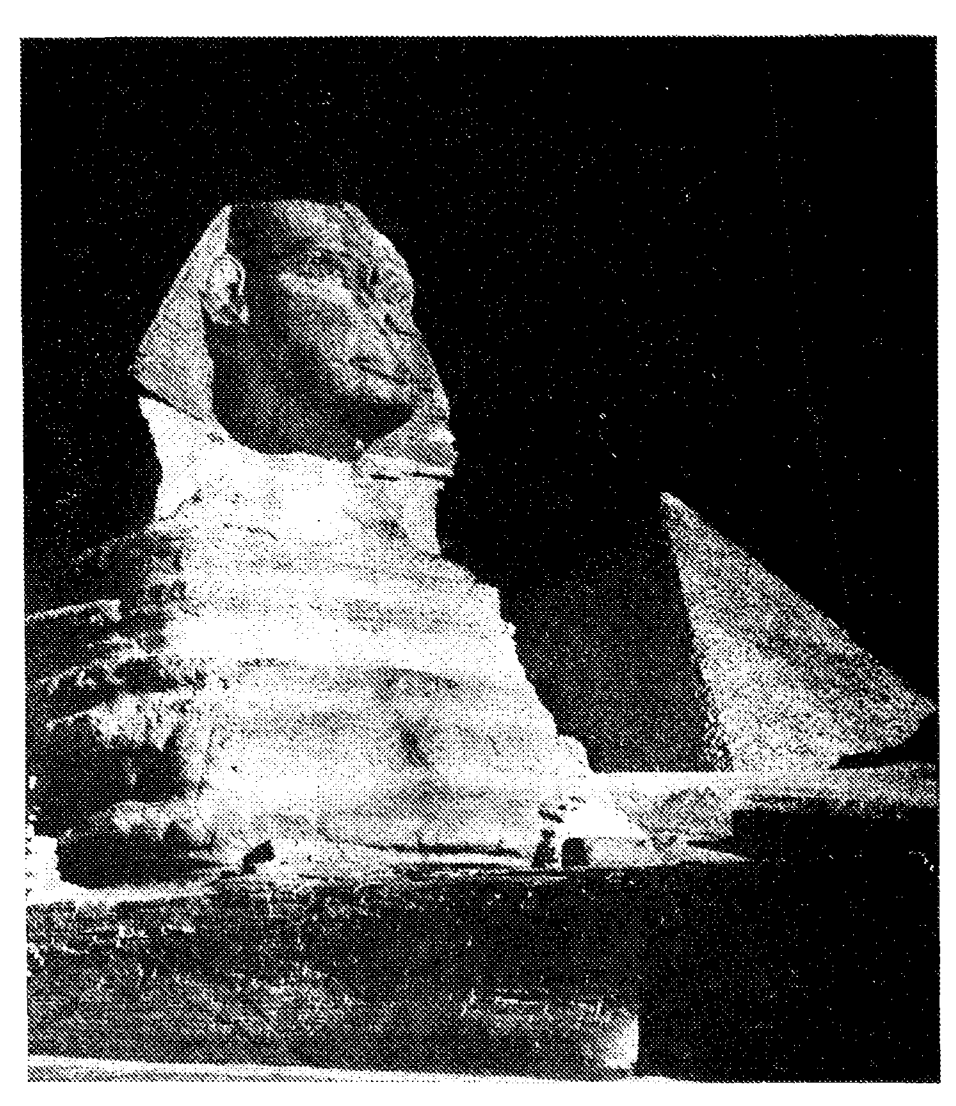
لوحة رقم ١٢ ا — معبد الإلهة إرتيمس في جرش : ويرجع تاريخ انشائه إلى القرن الثاني بعد الميلاد، ولكنه استخدم في أغراض أخرى فيما بعد عندما انتهت أيام الوثنية . وفي العصور الوسطى حوله الأتابك طغتكين إلى حصن في أيام الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر، وتعرض إذ ذاك لكثير من التخريب.



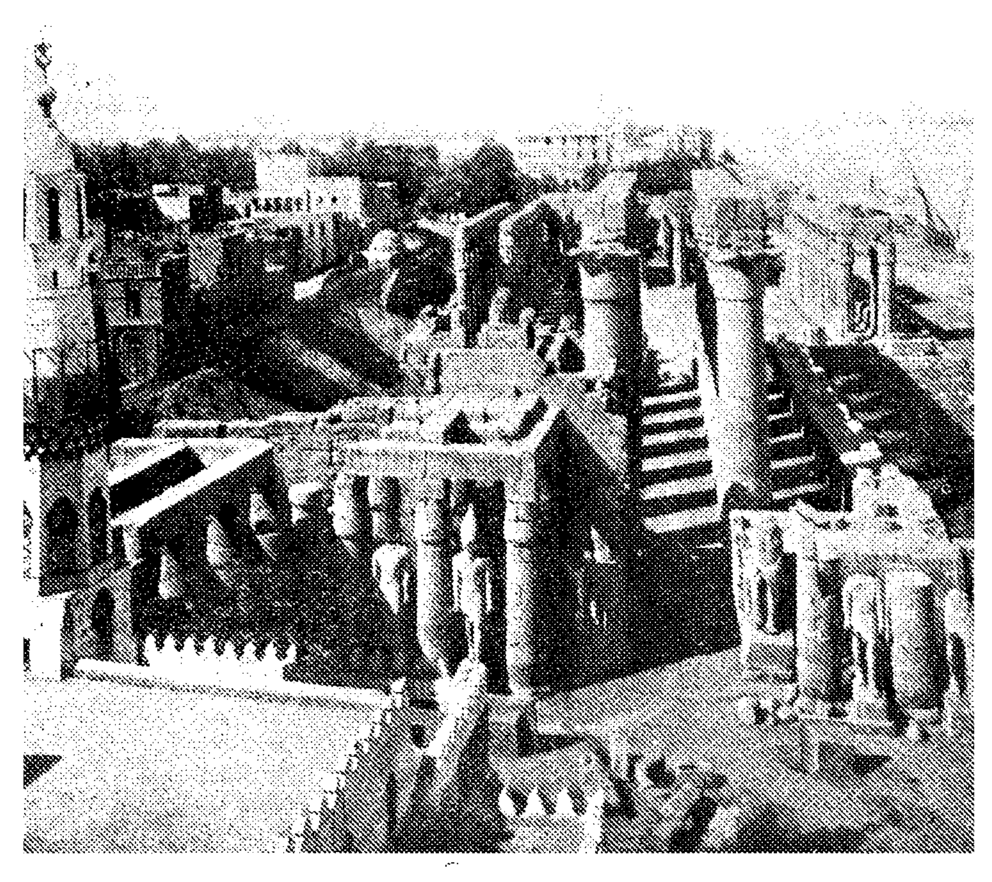
لوحة رقم ١٣ ــ خزنة فرعون : وهي من أجمل مقابر بطرا إن لم تكن أجملها جميعا وقد زخرفت واجهتها على الطراز اليوناني المتأخر ؛ وواجهتها تمثل بناء ذي طابقين ، ويُرى عليه رسوما وزخارفا مختلفة بينها رسم الإلهة المصرية إيزيس .



لوحة رقم ١٤ — المقبرة المعروفة باسم مقبرة القصر وذلك لأن زخرفة واجهتها تشبه زخرفة أحد القصور الرومانية . ويرجح بعض الأثريين أن هذه المقبرة العظيمة كانت مقبرة ملوك مدينة بطرا .



لوحة رقم ٩٥ — تمثال «أبو الهول» وإلى جانبه الهرم الأكبر : منذ أكثر من ٤٦٠٠ سنة نحت المثالون المصريون في صخر الجبل هذا التمثال للملك خفرع باني الهرم الثاني على صورة أسد له رأس انسان رمزاً لقوته وحكمته . وفي الدولة الحديثة أي بعد أكثر من ألف عام من نحته اعتبر المصريون هذا التمثال رمزاً للاله «حور — ام — أخت» وأصبحوا يعبدونه ويقدمون له القرابين وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام حضارتهم في العصر الروماني إذ كانت تقام أمامه أجل الاحتفالات يخرج إليها الرجال والنساء يحملون جريد النخل ويقضون الليالي ، وعلى الأخص القمرية منها ، في اللهو والشراب [illegible]



لوحة رقم ١٦ ـ معبد الأقصر : شيده أمنحوتب الثالث فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد عندما كانت طيبة عاصمة الإمبراطورية ، وكان ومازال درة من درر العمارة المصرية . وعندما انتشرت المسيحية فى مصر كان هذا المعبد مسرحا لاستشهاد الكثير من المسيحيين ثم أصبح جزء منه كنيسة مازالت بقاياها قائمة حتى اليوم . ومنذ أكثر من سبعمائة سنة بنى داخل المعبد أيضا مسجد « أبو الحجاج » الذى مازال مستخدما حتى الآن . ان هذا المعبد يمثل العمارة المصرية والفن المصرى خير تمثيل فى أيام الدولة الحديثة كما يعطينا أيضا صورة عن الحياة الروحية على مر العصور ، فطالما ترددت فى ردهاته صلوات الكهنة القدماء وأناشيدهم ثم تلاهم المسيحيون يرفعون أصواتهم بتراتيلهم وتسابيحهم بضع مئات من السنين واليوم يقف المؤذن فى كل يوم داعيا المؤمنين إلى الصلاة .



لوحة رقم ١٧ — رسم تخيلي لحفلة مصرية في الدولة الحديثة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد : يجلس صاحب البيت وإلى جانبه زوجته وحولهما الضيوف يشاهدون الرقص ويستمعون إلى الموسيقى التي تعزفها العازفات المحترفات ، ونرى في الصورة إحدى الإماء تقدم الشراب لسيدتها في إناء من الذهب . ونرى في الركن الأيمن من الصورة أواني النبيذ الكبيرة وقد حليت بالنقوش ووضعوا حولها أوراق الشجر لزخرفتها ونرى خدم صاحب البيت يدورون على الضيوف يحملون المآكل المختلفة وكؤوس الجعة والنبيذ .

لوحة رقم ١٨ — معبد آمون في سيوة: عندما زار الاسكندر واحة سيوة كان فيها معبدان أحدهما معبد الوحي فوق صخرة أغورمي وثانيهما في الوادي على مقربة منه وهو معبد أمون الذي لم يبق منه قائماً في مكانه إلا هذا الجدار وبضع أحجار كبيرة وصغيرة حوله . لقد شيد هذا المعبد في أيام نختنبو الثاني من ملوك الأسرة الثلاثين (القرن الرابع قبل الميلاد) وظل في حالة لا بأس بها حتى القرن الماضي عندما أراد أحد المأمورين أن يبني بيتاً له من أحجار المعبد فنسفه بالديناميت .



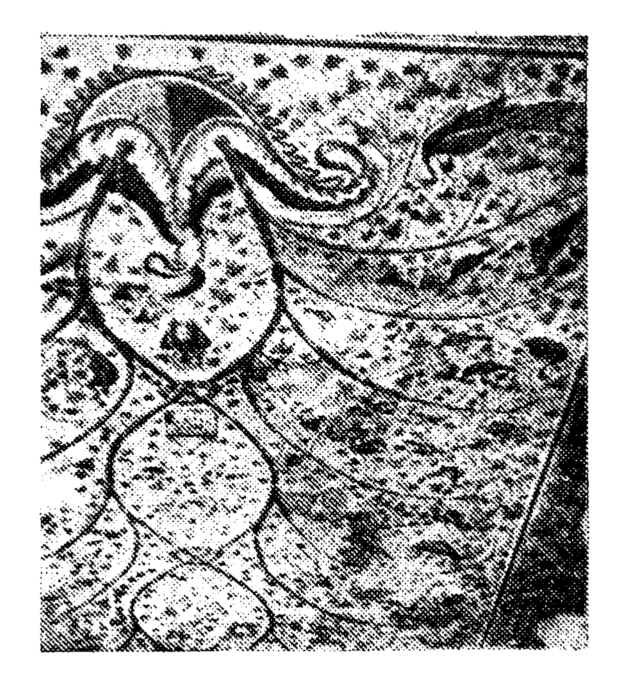
لوحة رقم ١٩ ــ مقبرة سى أمون فى سيوة : كان قدماء سكان واحة سيوة يدفنون موتاهم فى جبانات متفرقة ولكن أهمها جميعاً جبانة جبل الموتى التى تقع فى قلب بلدة سيوة نفسها وهى كلها مقطوعة فى صخر الجبل وبعضها ملون الجدران ، وأجملها كلها هذه المقبرة التى عثر عليها فى عام ١٩٤٠ ، ونرى هنا الالهة المصرية حاتحور تسند الاله حورس ووراءها إلهة أخرى .



لوحة رقم ٢٠ (أ) — مدينة لبتس ماجنا (لبدة) في ليبيا : مبنى البازيليكا . لقد ولد في هذا المكان على الشاطىء الإفريقي عام ١٤٦ ميلادية طفل أصبح فيما بعد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس ، الذى كرم موطنه فبنى فيه كل تلك المبانى العظيمة على الطراز الرومانى .



لوحة رقم ٢٠ (ب) — بعض أعمدة البازيليكا فى لبدة ، والأعمدة الظاهرة فى الصورة جزء من الإثنين والأربعين عمودا الجرانيتية التى نقلوها من مصر عند إنشاء هذه المدينة فى عهد الإمبراطور سيفيروس لتجميلها . وقد ... البازيليكا القديمة إلى كنيسة مسيحية فى القرن السادس .

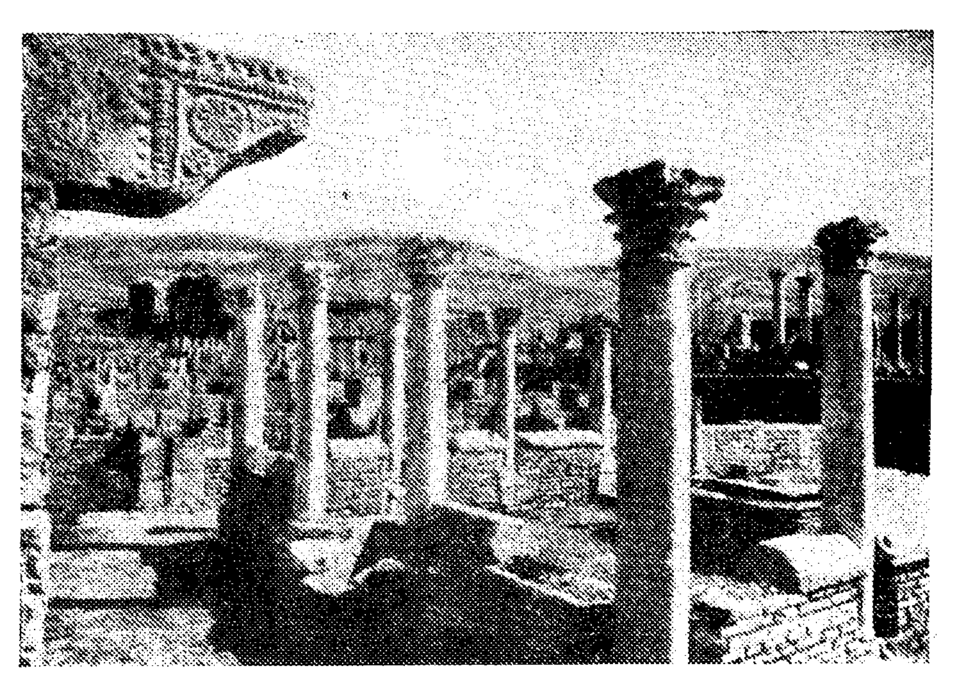


لوحة رقم ٣١ ـ (أ) فسيفساء عثر عليها فى مدينة صبراتا (حمص) فى ليبيا فى كنيسة جوستنيان من القرن السادس الميلادى ، نرى فيها بعض الرموز والعناصر الزخرفية المسيحية .



لوحة رقم ٣١ (ب) ـ فسيفساء من مدينة قرطاجنة فى تونس : عثر عليها فى أحد المنازل المكونة فى تلى بيرسا وتمثل أشخاصا يتنزهون فى الحدائق أو يصطادون على ظهور الخيل أو مشيا على الاقدام ، وفى وسطها رسم أحد المنازل . وفى الصف الأسفل نرى بعض النساء والرجال يعملون فى جنى المحصول

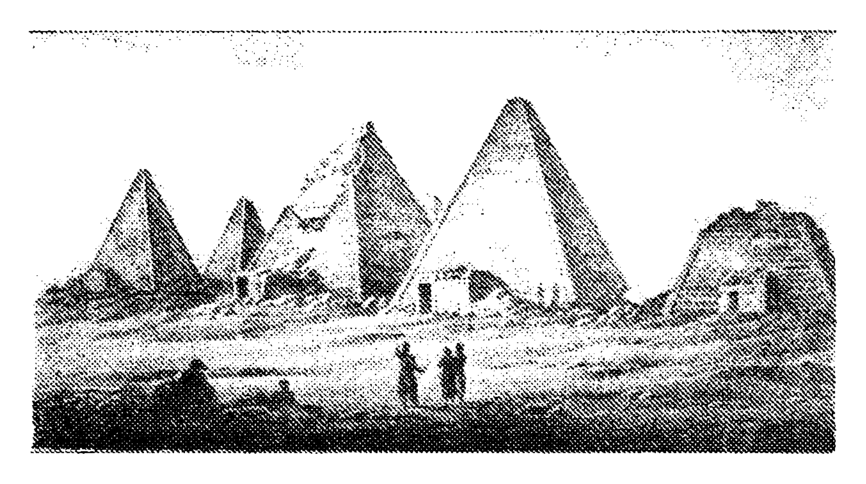
لوحة رقم ٢٢ (أ) ـ الحي الشمالي من مدينة جميلة (كويكول) في الجزائر وقد شيدت أهم معابدها في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد .



لوحة رقم ٢٢ (ب) ـ منظر آخر في المدينة نفسها ، ونرى فيه الأعمدة ذات التيجان المختلفة .



لوحة رقم ٢٣ — « حوى » حاكم السودان في عهد توت عنخ أمون : نرى في الصف العلوي زعماء السودان يمشون أمام العربة التي تقل أميرتهم وخلفها الأسرى من القبائل الزنجية . وفي طرف الصورة الدروع الحربية المزخرفة والكراسي المصنوعة من الأبنوس والعاج كما نرى الذهب والأحجار نصف الكريمة ، وكذلك الثيران التي جملوها بحليات ذهبية كبيرة ثبتوها في قرونها .



لوحة رقم ٢٤ (أ) — بعض أهرام السودان كما كانت في القرن الماضي: صورة لمجموعة من الأهرام على مقربة من جبل بركل وأمام كل منها في الجهة الشرقية هيكل صغير، وكان الملوك والملكات وأبناؤهم يدفنون تحتها. وقد عثر في كثير من هذه الأهرام على حلي كثيرة وأدوات أخرى على جانب كبير من الدقة والجمال.

لوحة رقم ٢٤ (ب) — معبد الإله الأسد «أبيدماك» في «النقعة» على مقربة من شندي وقد شيده الملك نتكاماني وزوجته أماني تيرع (١٥ ق.م. — ١٥ ميلادية). ونراه مشيداً على الطراز الفرعوني مثل معابد السودان الأخرى. وعلى صرح المعبد نرى صورة الإله وله رأس تمثل الملكة وقد قبضت على ناصية أعدائها

الفهــرس

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)